الفصل الخامس

الديـن والعقـل

هناك خطأ ما يتعلق بهذه الصورة

الأهمية العظيمة التى يعطيها القرآن للعقل فى اتصاله بالإيمان تثير الدهشة، وبخاصة عندما نضع فى الاعتبار المرحلة الزمنية، وكذلك المكان الذى ظهر فيهما القرآن أول مرة[1]. كانت الجزيرة العربية بجميع المقاييس بعيدة كل البعد عن كونها مهدًا للعلم أو للفلسفة. كان العرب أناسًا قساة فقراء جهلة وغير متحضرين، مستغرقين معظم الوقت فى القتال الضارى ضد بعضهم البعض وضد خشونة البيئة المحيطة بهم للحصول على القليل اللازم للحفاظ على بقائهم. وفى حين أن الكتب المقدسة لديانات العالم الرئيسية الأخرى قد ظهرت داخل مجتمعات متقدمة وراقية، فقد ظهر القرآن أولاً فيما يمكن أن يناسب وصفه فى الصحراء الثقافية القاحلة. يتفق المؤرخون على أن العرب كانوا قومًا بدائيين ليس لديهم ميراث فنى أو أدبى أو علمى يمكن الحديث عنه، ولا يملكون مدارس للفلسفة، ولا أعمالاً ذات أهمية من الفن المرئى، وكانوا جاهلين بعلوم الرياضة العليا، وليسوا من أصحاب

(١) إصرار القرآن على أن العقل ضرورى وجوهرى للدين هى فكرة راديكالية حتى فى العصر الحديث. لقد أصبحت فكرة تناقض العقل مع الإيمان بديهية من بديهيات الفكر المعاصر. ولم يثبت فقط هذا التناقض، بمعنى أن القياس قد أظهر أن الإيمان بالله يقود على الدوام إلى تناقض منطقى، بل علاوة على ذلك فإن هذا التناقض على الأرجح هو مفهوم إدراكى تولد من الخبرة التاريخية وكذلك الشخصية. فلدينا من جهة التاريخ الطويل من اضطهاد الفلاسفة والعلماء من قبل المؤسسة الدينية، ومن جهة أخرى فلدينا الإحباط العام الذى ينتاب العقلانيين غير القادرين على الحصول على إجابات مريحة على تساؤلاتهم الدينية. لذلك فقد يكون من الأكثر صوابًا أن نقرر أن العقل والإيمان قد استخدما على الدوام ضد بعضهما البعض بدلاً من كونهما متضادين بالضرورة. وبغض النظر عن كيفية توصيف ما سبق، فهناك القليل النادر داخل التراث التوحيدى اليوم الذى يصر على اتحاد الإيمان مع العقل. كما يتوجب أيضًا الإشارة إلى أن معظم المسلمين فى أيامنا هذه، بخاصة كثير من الشيوخ منهم، على حذر من أى اقتراب عقلانى ناحية الإسلام. ويبدو أنهم يعتمدون بشدة أكثر على النقل وليس العقل. لم يكن ذلك هو الحال دائمًا داخل العالم الإسلامى، وبخاصة فى قرونه الأولى من التاريخ الإسلامى.

الكتب أو النصوص المقدسة الأخرى. كان الشعر هو الشكل الفنى المنظور الوحيد لديهم، وكان يتداول ويتوارث شفهيّا. لا يتوقع من مثل هذه البيئة أن تنتج عملاً بمثل هذه العبقرية والقوة الأدبية. وقد يفترض أن نضجًا ثقافيّا طويلاً وتدريجيّا قد سبق ظهور القرآن.

لا وجود لدليل على أن محمدًا قد تلقى تعليمًا رسميّا، وربما يكون قد قاد بعض القوافل التجارية عندما كان فى منتصف العشرينيات من عمره، لكن ذلك لم يتح له فرصة تنمية مهاراته الفكرية لبلوغ هذا المستوى الرفيع. إن مجمل أسلوب القرآن، وتأكيده على العقل، وترابطة المنطقى، واستخدامه العبقرى للغموض والرمزية، وجماله وإيجازه، يشير إلى صاحب نص له بصيرة وحكمة تتجاوز وتتعالى بكثير على البدائية الضيقة لشبه جزيرة العرب المتخلفة والمعزولة.

ولقد ظننت أنه ربما كان للقرآن أكثر من مصدر، لكن على النقيض من النصوص الأخرى فلا وجود لدليل داخلى يدعم ذلك. إن الشخصية الكامنة وراء هذا الوحى هى واحدة بوضوح، كما أن ترابطه يعلو بشكل هائل على احتمال كونه نتاج مجهود جماعى. ومثلما يصرح القرآن:

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

﴿ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

التفسير المنطقى الوحيد الذى فى مقدورى التوصل إليه هو أن محمدًا ينبغى له أن يكون أعظم عبقرية إنسانية، حيث إن التاريخ قد عرف العديد من العقول الموهوبة إلى حد يجاوز المعتاد، لكن أيّا من هؤلاء لم يتسن لهم سبق أزمانهم وتجاوز أماكنهم مثلما قد فعل هو فى الحقيقة: كان «أينشتين» فيزيائيّا يثير الانبهار، لكن إتيانه وتطويره لنظرية النسبية سبقه قرون من الكشف، كان علم الفيزياء يتحرك فى اتجاهها لبعض الوقت. ولو لم يأت «أينشتين» بنظرية النسبية فى الوقت الذى فعل فيه ذلك، كان من شبه المؤكد أن يأتى بها أحد أقرانه بعدها بوقت قليل. البرهان الحالى الخاص بالنظرية الأخيرة «لفيرمات» الذى أتى به «أندرو ويلز» هو إنجاز هائل، لكن مئات السنين من التقدم فى مجال علم الرياضة إضافة إلى العمل على

حل هذه المسألة أسهم فى الوصول إلى هذا البرهان. «موزار»، و«ڤان جوخ» و«شكسبير» كانوا شخصيات استثنائية، لكن أعمالهم قامت وعكست توجهات داخل الظروف الثقافية المحيطة بهم. لكن الظهور المفاجئ للقرآن فى الحجاز قد بدا مثل حديقة من الزهور نبتت فجأة وهى مكتملة النمو داخل أشد مناطق صحراء الربع الخالى فى الجزيرة العربية.

لقد شعرت بأن لو كان محمد قد افترى من عنده القرآن، فكان ينبغى له إلى جانب كونه أشد العقول امتيازًا فى التاريخ، أن يكون مثلاً فى الإيثار والورع. القرآن هو أصفى وأطهر شهادة على التوحيد فى الوجود، كما يسفر عن الالتزام العاطفى المشبوب والعميق بتقديم العون للإنسانية هاديًا الرجال والنساء إلى حب الله والحياة فى تقوى. كما أنه يبدو أيضًا أن النبى كان مثلاً فى التواضع ونكران الذات، حيث يصر النص المقدس بشكل متكرر على أن محمدًا مجرد إنسان، وأن دوره الوحيد هو تبليغ الرسالة، كما أنه لا يمتلك قوى فوق العادة، كما أنه مثله مثل أى إنسان آخر يتوجب عليه العبادة ابتغاء للهدى وللمغفرة[1]. ويوجه القرآن العتاب إليه كما يصحح له تصرفاته فى مناسبات عدة. يندر مثل هذا التواضع من شخصيات تتفوق بشكل كبير على أقرانها من ناحية الذكاء.

لذلك، فإذا كان محمد قد افترى هذا القرآن من عنده، فإن الأمر قد يبدو أنه وهب ذاته من تلقاء نفسه من أجل خدمة الله والإنسانية ومن أجل تعليم الفضيلة، لكن مع ذلك فلا يمكننى تجاهل أنه ربما قد اخترع أيضًا أشد الخدع جرأة، ناسجًا نصًا يبدو فى ذاته بوصفه اتصالاً مباشرًا لله من خلاله. من غير المقبول أن شخصًا قادرًا على مثل هذه الكذبة الجبارة، أن يصدر عنه أيضًا مثل هذا النداء الهائل الداعى إلى الحق وإلى الخير. وقد تلاعبت أيضًا مع فكرة أن النبى قد كان ذا شخصيات متعددة، لكن القرآن ليس بكل تأكيد هلاوس لشخصية متشظية، بالقدر ذاته الذى لا يمكن به أن يكون عملاً لأفراد عدة.

---

(١) [الأنعام: ١٠٧] [يونس: ٤٩] [هود: ١٢] [الرعد: ٣٨] [الإسراء: ٩٠ - ٩٤] [الفرقان: ٧] [الإسراء: ٧٤ - ٧٥].

توجب علىّ فى نهاية الأمر أن أضع أمر مصدر القرآن جانبًا. وعلى أية حال، لم يكن ذلك من تمام أهدافى. لقد قررت أن لو كان محمد قد كتب القرآن فإنه يكون بذلك وبلا شك أعظم البشرية قاطبة، وإذا كان غيره كتبه، فإن صاحب النص الحقيقى قد انزلق خارج التاريخ بشكل أو بآخر.

اختيار صعب

أتذكر يومًا عندما كنت فى حصة دين فى الصف الخامس وكنا ننشد ونرتل بانسجام قانون الإيمان الذى على شكل سؤال وجواب، وعندما وصلنا إلى النص القائل «إن العقيدة الكاثوليكية هى الدين الصحيح الوحيد» عندها رفعت يدى.

«نعم يا چيفرى» سألتنى الأخت برناديت.

«اختاه، أليس كل مدرس للدين يقول لتلامذته بأن دينهم هو الدين الصحيح الوحيد؟ أنا أعنى أنه ليس فى مقدورى تخيل أن معلمة للدين تخبر تلامذتها أن دينًا آخر هو الدين الصحيح الوحيد. كيف يتأتى لنا فى الواقع معرفة ذلك؟»

وحدقت الأخت برناديت فى وجهى وهى مشدوهه لمدة ثانيتين، ثم عقبت قائلة بحذر وببطء إلى حد ما «علىّ أن أسأل الأب (هانوفر) عن ذلك، وسوف أعود إليك بالإجابة».

لم ترجع الأخت «برناديت» بالإجابة على الإطلاق، وفى الأغلب فإنها لم تتذكر، وبالتالى لم أكرر أنا السؤال، لكنه استمر فى إلحاحه علىّ.

لقد أخبرنى صديق ذات مرة «كلما ازدادت عظمة العقل، ازدادت صعوبة الاختيارات» ويبدو أن القرآن يؤكد النقطة نفسها فى قصة الزوجين الأولين ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ**

تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٩].

فبمجرد بيان أن الإنسان تتفوق إمكاناته على الملائكة بسبب ذكائه الأكبر، فقد أعد المسرح لكى يعرض آدم وحواء عرضهم الأول الخاص بالإرادة الحرة. يبين لنا القرآن أن الناس سيتعرضون لوساوس شيطانية وإلهامات ملائكية، وأن أوضاع الناس فى الدار الآخرة سوف تتحدد بشكل كبير عن طريق الاختيارات التى يقومون بها فى زمن حياتهم الدنيا.

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يشدد القرآن على وجوب أن يكون الإيمان اختياريًا. الإيمان الحقيقى هو اختيار، لا بد أن يتأتى كفعل صادر من الإرادة والعقل، حيث ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ ويؤكد القرآن على أن فى مقدور الله خلق الناس مبرمجين؛ لكى يخضعوا خضوعًا تامًا لإرادته، لكن الله له مشيئة مختلفة.

﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨].

لله القدرة على أن يجعل كل البشر أمة واحدة فى الخضوع له - نسخًا روحية مستنسخة من بعضها البعض - لكنه عوضًا عن ذلك أعطانا ووهب لنا ملكة التفكير من أجل الاختيار ومنحنا القدرة على تنفيذ اختياراتنا وصولاً إلى نهاياتها المتوقعة. وعلى الرغم من أن اختياراتنا قد يمتد تأثيرها إلى آخرين، فإننا نحن أول المنتفعين من اختياراتنا.

﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [النمل: ٩٢].

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الزمر: ٤١][1].

وقد يبدو من الآيات السابق بيانها أن الرجال والنساء أحرار حرية مطلقة، وأن الله يسمح للعالم بأن يجرى فى مساره بدونما تدخل. وعلى الرغم أننى كنت أفضل مثل هذا الوضع من جانب القرآن بوصفى ملحدًا، لكن الأمر ليس على هذا المدار. يخبرنا القرآن أن لله القدرة والسلطان على جميع الأشياء، وأن لا شىء يحدث بدون إذنه، وأن الله كثيرًا ما يؤثر على مفاهيم الناس وأحكامهم، ويهدى المؤمنين، ويسمح للعصاة بالسير على غير هدى، ويحرك الدراما الإنسانية؛ لكى يضع الناس فى مواضع للاختبار أو للابتلاء. هيمنة الله على الخلق هى فى القرآن شاملة لكل شىء مما يترك الانطباع بأن لا شىء على التقريب يحدث بمحض الصدفة، وأنه داخل كل مواجهة شخصية وكل فعل دنيوى هناك نفحات إلهية مبثوثة من أجل النمو الروحى. وعلى الرغم من أن القرآن يؤكد على أن الرجال والنساء أحرار فى اختياراتهم، فهم ليسوا على هذا القدر من الاستقلال الذى يظنون أنهم عليه. فتتوالى النفحات الإلهية التى تعرض عليهم باستمرار من أجل اتخاذ القرارات الأخلاقية والروحية.

وفيما يبدو فإن وهم هذا الاستقلال ضرورى من أجل النمو الإنسانى ومن أجل التعلم، حيث إننا لو أدركنا حضور الله الشامل بشكل مستمر، فستصبح الغواية

(١) انظر أيضًا [يونس: ١٠٨]، [الإسراء: ١٥].

وكذلك معها التطور الأخلاقى والروحى شبه مستحيلين. يعود الأمر فى جعل اتخاذ القرار والاختيار بين فعل الخير أو فعل الشر ممكنًا وبالنسبة إلينا حقيقيًا فى جزء منه إلى الانطباع الذى لدينا بأننا تفصلنا مسافة عن الله. لذلك، حدثت الغواية للزوجين الأولين «فى الجنة»، عندما أدركا أو فهما أن الله غير موجود هناك. وبالمثل، عندما استعدا للانتقال إلى المرحلة التالية من حياتهم، أخبرهم الله قائلاً: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ مشيرًا إليهم بأنهم سوف ينفصلون عن الله. لذلك، يخبرنا القرآن أن الله -فى الحقيقة- قريب منا على الدوام.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبِّى إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥].

يعلى توهم الإنسان باستقلاليته، ويكشف من ممارستنا الاختيارية وخبراتنا التعليمية فى الحياة، كما أنها تتيح لنا فرصة لتطبيق ما تعلمناه بشكل مستقل. للتعليم مرحلتان أساسيتان، سواء أكان داخل قاعات الدرس أو خارجها، تلقى الدرس ثم المحاولة، وتصل المعرفة إلى مستوى آخر عندما تتعرض للاختبار.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧].

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ١-٢].

يصقل إدراكنا للاستقلالية أيضًا من إدراكنا للوقت والزمن، حيث يتيح لنا الشعور بأن العواقب الشخصية المترتبة على اختياراتنا، وكذلك لقاءنا مع الله في الآخرة يبعد في الزمن بعيدًا داخل المستقبل. لذلك فلسنا نشعر بوجود مسافة تبعدنا عن الله فقط من الناحية المكانية، لكن بمسافة أخرى أيضًا على المستوى الزمني. ومرة أخرى يخبرنا القرآن مع ذلك من أن إدراكنا للزمن ليس موضوعيًا على وجه الحقيقة، وأننا سوف ندرك ذلك عندما نعبر إلى الحياة التالية.

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازغات: ٤٦].

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ ﴾ [يونس: ٤٥].

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾ [طه: ١٠٣].

﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه: ٢٠].

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢- ١١٤].

الوقت أو الزمن بالكيفية التى ندركه بها هو فى هذه الحال مثال آخر على أوهامنا المعيشة. ما يمثل بالنسبة إلينا المرور البطىء والسريان المتثاقل للتاريخ لا يمثل بالنسبة لله إلا كلمح بالبصر[1]. وعلى الرغم من أننا نرى إرادة الله وهى تتكشف على مدار العديد من الأيام والسنين، فإن ذلك لا يمثل لله إلا كلمة أو أمرًا واحدًا «كن! فيكون»[2] كما يعرض القرآن أيضًا للصفة التوهمية المتعلقة بالزمن عن طريق مقارنة «أيام الله» بالأيام الدنيوية، حيث يقول: إن «يوم الله» مقداره ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، ويعادل ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، بذلك فإن الزمن حسب إدراكنا له ليس إلا موضوعًا آخر من موضوعات الوجود الذى نحيا فيه لا يحمل أية صحة حقيقية خارج نطاق هذا الوجود، حيث يشمل علم الله وإرادته كل الزمن والمكان داخل «لحظة» مفردة وأزلية خارج نطاق الزمن.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٤٩، ٥٠].

وليس وهم الانفصال والابتعاد عن الله من خلال الزمن والمكان هو الوهم الوحيد الذى نعيش داخله، حيث يؤكد القرآن على ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، [الحديد: ٢٠]، كلما توغلت فى قراءة كل صفحة من صفحات القرآن، كلما أصبحت صورة الحياة بوصفها اختباراً بالنسبة لى أكثر قوة، وبوصفها سياقًا لحل المشكلة التى خلقت كتحدٍّ أمام البشر ولحفز النمو الأخلاقى والفكرى والروحى لهم. يخلق الله لنا وهم الانفصال عنه من أجل تحفيز

(١) على الرغم من أن يوم القيامة يقع من وجهة الإدراك البشرى فى المستقبل البعيد، ينص القرآن على أنه أقرب من اللمح بالبصر.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧].

(٢) [البقرة: ١١٧]، [النحل: ٤٠]، [يس: ٨٢]، [غافر: ٦٨]، [القمر: ٥٠].

نمو شخصياتنا مثله فى ذلك - ولله المثل الأعلى - مثل المعلم الذى يغادر غرفة الدرس؛ لكى يراقب تلامذته أو تلامذتها من خلف مرآة ترى من ناحية واحدة. لقد وضعنا الله داخل بيئة معاكسة، لكن مسلحين بالعقل وبالقدرة على الاختيار، متروكين لأنفسنا - فى الظاهر - من أجل بلوغ أقدارنا.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٩٩-١٠٠].

تقدم هاتان الآيتان موجزًا شديدًا لموقف القرآن تجاه الإرادة الإلهية والإرادة الإنسانية. لا يريد الله إكراه الناس حتى يكونوا مؤمنين، بدلاً من ذلك فلا بد للإيمان من أن يأتى من خلال الاختيار الحر. وبالرغم من أنه لا بد من التوصل للاختيار بشكل حر، لكنه لا يعنى ذلك على الإطلاق الاستقلال عن الله، حيث إنه - جل وعلا - هو الذى ينمى ويتلقى ويستجيب لذلك الاختيار بالأسلوب الواضح، وكذلك بالأسلوب الخفى. . لكن الله سوف يترك هؤلاء الذين يرفضون هذا الاختيار بعناد وبغير تعقل إلى عدم إيمانهم وصولاً إلى خسرانهم المبين. إن الاختيار والعون الإلهى (النفحات الإلهية - التوفيق الإلهى) والذكاء هى المفاتيح الثلاثة المؤدية إلى الإيمان الحقيقى.

لكن لماذا هو الأمر كذلك وبهذه الكيفية؟ ما هو الإيمان الذى يتوجب عليه أن يشمل العقل وكذلك الاختيار؟ لقد اعتدت أن أفكر فى الإيمان بوصفه اعترافًا بحقيقة مفترضة ثم الخضوع لتلك الحقيقية التى قد زرعت داخل الناس بكل تأكيد. وفى الحقيقة، يشير القرآن إلى أن الكائنات الأخرى ذات طبيعة مجبولة أو ذات غريزة عبادة وخضوع لله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١]. ينبغى للإيمان أن يمثل للإنسان شيئًا أكثر عظمة وأشد تعقيدًا، لكن ما هو إذن؟

لقد شعرت وكأننى أشاهد شاشة جهاز تليفزيون يتناوب عليها وضوح الصورة واهتزازها. ظننت فى بعض الأوقات أننى بدأت فى رؤية الصورة الكبيرة، وعندها تبدأ سحب الاعتبارات الأخرى فى التراكم فى طريق الرؤية. كانت المعاناة الإنسانية تمثل لى موضوعًا رئيسيًا يتسبب عنه فقدان تركيز الرؤية. ما هو الدور المحتمل الممكن أن تلعبه هذه المعاناة؟

لماذا أنا؟

«لماذا كان يتوجب حدوث هذا الأمر لى؟» تساءلت «جيردا» بغضب «أنت تدخنين علبة من السجائر كل يوم، مع ذلك فأنت فى غاية الصحة! أنا لم أدخن سيجارة واحدة على الإطلاق فى حياتى ثم أصاب بسرطان فى الرئة. كان ينبغى أن تكونى أنت المصابة! كان ينبغى أن تصابى أنت بالسرطان ولست أنا!».

انتابنى الغضب نتيجة لما قالته «جيردا» «لراجية»، لا يمكن القبول بأن يتمنى أحد لزوجتى الإصابة بالسرطان، وهى الشخص الأكثر دفئًا ورقة وعطفًا بين كل من عرفتهم على الإطلاق، بغض النظر عن الحالة التى كانت فيها «جيردا».

قلت لراجية: «هذه مقولة غريبة تتفوه بها إنسانة ملحدة بتطرف. إلى من تتوجه بشكواها - إلى الطبيعة؟ هل تودين القول لى بأن ليس فى مقدورها - من المنظور الخاص بها - أن ترى كيف أن واحدة من تسلسل الأسباب اللانهائية على وجه التقريب، إضافة إلى التأثيرات التى حدثت منذ الانفجار العظيم قد قادتها إلى الإصابة بالسرطان؟ لماذا يتوجب لها أن تستبعد واحدة من أحداث الحياة غير القابلة للحصر، إذا لم يكن هناك الله؟».

وقد تلقينا مكالمة من «جيردا» بعدما رحلت إلى ألمانيا من أجل العلاج. لقد أخذتنى المفاجأة عندما سألتنى: «هل تدعو الله لى؟».

وعلى الرغم من أننى قد قلت لـ «جيردا» بأننى سوف أدعو لها الله، فقد كان ظنى أنه على الأرجح أن الأمر قد يكون أكثر فاعلية إذا ما دعت هى الله بنفسها.

«إذا ما كتبت لى النجاة من هذا الأمر، فسوف أبادر بدراسة جادة للدين» قالتها مقسمة بكل جدية، وقد اختلج صوتها من الانفعال.

تعرضت «جيردا» إلى علاج فى غاية الحداثة من قبل أطبائها فى ألمانيا. وعلى الرغم من أن إصابتها بالسرطان كانت متقدمة إلى حد بعيد وأن الأمل كان ضعيفًا، كان نجاح العلاج جليًا، وعادت «جيردا» بعدها إلى مدينة لورانس خالية من أية آثار يمكن تعقبها للمرض. أحدثت معركة «جيردا» مع المرض تغيرًا عميقًا فيها، لكن التغير لم يكن بالأسلوب الذى قد يتوقعه المرء.

بقدر ما أمكننى رؤيته فإنها لم تنجز على الإطلاق وعدها «بالقيام بدراسة جادة للدين»، وظلت على إلحادها المتطرف والصاخب كما كانت، لم يكن فى الأمر مفاجأة، حيث يحدث للعديد من غير المؤمنين مراجعة فكرية خلال أزمة ما، لكن نظرتها إلى الحياة تحولت إلى داخل ذاتها بشكل درامى. دائمًا ما كانت «جيردا» تدلل أصدقاءها وكانت شديدة الولاء لهم والكرم معهم، عندما طرقنا هذه النقطة فى محادثة لنا قالت لى «كانت تلك غلطة فظيعة من جانبى. لقد تعلمت كم هى غالية هذه الحياة. كان غباء منى أن أعطيت من نفسى الكثير البالغ للآخرين، لن أقوم بفعل ذلك مرة أخرى على الإطلاق».

بعد مرور ما يقرب من عام ونصف العام على حصول «جيردا» على تقرير بتمام الصحة والعافية، وجد الأباء الخاصون بها أن مرض السرطان قد عاودها، وفى هذه المرة أصر الأطباء على أنه ليس بيدهم شىء يمكنهم فعله لها، حيث كان المرض قد انتشر إلى حد بعيد.

وقد اشتكت إلى زوجتى مرة على حين غرة «أى نوع من الأرباب هذا الرب الذى يفعل ذلك معى».

عادة لم تكن «راجية» تتجاوب مع النقد الساخر العنيف الموجه للدين الذى تبديه «جيردا». إذا كانت «جيردا» راغبة فى النقاش الهادئ والمحترم حول الدين فإن «راجية» تكون فى غاية الترحيب بفعل ذلك، لكن عندما تبدأ الأولى فى النبرة التهكمية تفضل «راجية» إهمالها.

أجابت «راجية» بدون تفكير: «ربما يكون هو الرب الذى يعطيك الفرصة الثانية».

لم تكن «جيردا» من النوع الذى يقنع بأن يترك للخصم الكلمة الأخيرة، خاصة عندما يكون النقاش حول الدين، لكنها ظلت على صمتها مستغرقة فى تفكير حزين، وربما يعود الأمر إلى حالتها الصحية المتدهورة.

وقد عزلت «جيردا» نفسها عن أصدقائها خلال شهور مرضها الأخيرة، وقالت لـ«راجية» من خلال محادثة تليفونية إنها لا ترغب فى أن يراها أحد «على هذه الحالة»، كانت «جيردا» وزوجها يقومان بتدريس الرياضيات فى جامعة كانساس، وقد علمت بخبر وفاتها من المذكرات الإدارية للقسم. وقد بينت المذكرة بأن الأسرة لن تقيم حفل عزاء من أجلها، وأن كل من يرغب فى تقديم العزاء فى مقدوره التبرع من أجل تمويل منحة دراسية خصصها زوجها لذاكرها.

دائمًا ما شكلت المعاناة الإنسانية مشكلة هائلة فى طريق الفكر الدينى هل هذه المعاناة من أجل تقديم الترفيه لآلهة متخاصمة ذات نزوات وقد أصابها الملل؟ هل هى عقاب على طبائعنا الخاطئة؟ هل هى أمر يتوجب علينا النجاة منه؟ هل هى مظهر من مظاهر الخلق الضرورية الواجب تجاوزها من خلال التدريب الروحى والتأملى؟ هل هى نتاج ضربات الصدفة التى تحدث داخل كون لا إله له؟

تسلّم كل هذه الأسئلة بموقف بديهى يقول بأن المعاناة الإنسانية هى ضرب من التدمير غير المرغوب فيه. يبدو ذلك طبيعيًا حيث إنه يعكس المنظور الإدراكى البشرى، ووجهة نظر المرء الذى يشعر بأنه ضحية. مع ذلك، فإن للقرآن وجهة نظر مختلفة تتعلق بالمعاناة الدنيوية للبشر. يقول القرآن بأنها عنصر ضرورى ومحورى فى عملية النمو الإنسانى، وأن جميعنا الصالح منا والطالح، والفاجر منا والتقى، والمؤمن منا والكافر يتوجب علينا بل وينبغى لنا أن نذوق من هذه المعاناة.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

[البقرة: ٥٥-١٥٦].

لذلك ينبغى لكل واحد أن يمر بتجربة الألم، والفقدان، والضيق والشدة والمصائب أثناء حياته الأرضية، بغض النظر عن درجة تدينه. وقد شعرت بأن ذلك هو اعتراف صريح، لكن القول ﴿وبشر الصابرين﴾ قد بدا لى فى أول الأمر كما لو كان فى غاية الدموية والغلظة فى سياق آية تتحدث عن البؤس البشرى. هل يغفل القرآن عن الضرر الفادح الذى تحدثه المعاناة الحادة لشخصياتنا؟ وبدلاً من ذلك، يؤكد القرآن على مجرد النقيض، بأنه فى مقدورنا الحصول على فائدة هائلة عن طريق الكيفية التى نستجيب بها حيال مصائب الحياة، وأن هذه الاستجابة مرتبطة ارتباطًا لا تنفصم عراه بما سنكون عليه فى الدار الآخرة:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

لقد توقفت عند هذه الآية وأعدت قراءتها عدة مرات. ظللت أفكر: ما علاقة المعاناة بالجنة؟ لم لا تتجاوز مرحلة الحياة الدنيا هذه، وتضعنا مباشرة فى الجنة؟

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ لم لا؟ ما ضرورة المعاناة؟ ما الرابطة بين المعاناة والجنة؟ لماذا لا يوضع الأمر بشكل أكثر وضوحًا؟

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ إلى ماذا ترمى هذه الآية؟ ما هو الذى لم أفهمه هنا؟ ﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعه مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

ما يتوجب ملاحظته هنا أن هذه الآية تصور أن المعاناة البشرية تشمل المؤمنين الحق - ﴿الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا معه﴾- وكانت بلواهم شديدة - وزلزلوا حتى إنهم استغاثوا صارخين: متى نصر الله؟

تساءلت: لماذا يتوجب على الأخيار من الناس أن يعانوا الضيق والفزع؟ لماذا يتوجب علينا أن نحيا وجودًا مهددًا ومحفوفًا بالمخاطر إلى هذه الدرجة البعيدة؟

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٨٦].

تابعت التفكير : لماذا كتب علينا أن نموت، إذا كنا سوف نحيا مرة أخرى؟

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] يواصل القرآن تكرار التذكير، وخاصة بعد بعض الآيات التى تشدد على أهمية المعاناة الدنيوية للبشر، إننا سوف نرجع إلى الله. تؤدى المعاناة إلى جعلنا أكثر قربًا من الله بأسلوب ما؟

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ [الأنشقاق : ٦].

كيف نكدح إلى ربنا كدحًا؟ كيف تجعلنا البلوى ويدفعنا الألم لنكون أكثر قربًا من الله؟

ما فى مقدورى العثور عليه هو التأكيد على ذلك فقط، لكننى لم أعثر على إجابة. فى مقدورى رؤية تصميم النص المقدس بكل وضوح على أن المعاناة هى عنصر جوهرى من أجل التطور الإنسانى، لكننى إلى الآن لم أقدر على رؤية سبب وجوب ذلك.

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ [البلد : ٤-١٧].

كانت الآيات السابقة بالنسبة لى من النوع الذى لا يفارق المرء ويفتح عينيه، وهى متخللة فى ثنايا القرآن، بحيث تغير من زاوية نظر غير متوقعة إلى زاوية نظر أخرى بأسلوب مفاجئ ودرامى، وهو النوع الذى كان نزالى معه من الصعوبة بمكان.

لقد أصابنى التأكيد على ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ بالصدمة بسبب اتسامها بالصراحة الصارمة، على الرغم من أننى رأيتها - عند إمعان التفكير - متسقة بشدة

مع كل شيء قد صرح به القرآن حتى هذه اللحظة. ولم يكن في وسعي إنكار أن الجنس البشري قد بدا مؤهلاً بشكل فائق إلى حد كبير من أجل النضال، يبدو أن جنسنا البشري يجد نموه وازدهاره في الصراع بوصفه تراجيديًا، كما أن الكفاح أو النضال قد شكلا علامة وقادا تطورنا خلال مسيرة التاريخ. وحتى حينما لا تكون المشقة من نصيبنا، فإننا ننشد المشقة في هيئة تحديات ومنافسات من صنع الذات. لذلك فبينما قد يكون الناس قد خلقوا ﴿فِي كَبَدٍ﴾ فإن القرآن لا يضع التركيز هنا على الدور الذي لعبه هذا الجزء في تطور عالم البشر، إنما هو معنى أكثر بتبعاته الأخلاقية والروحية، ويبدأ بالتحذير من تأثيراته السلبية المحتملة، ينتهي النضال إما بالنجاح وإما بالفشل ومن ثم قد يقود إما إلى الاستكبار وإما إلى القنوط على الترتيب، وفي كلتا الحالتين إلى فقدان التقوى أو فقدان الثقة في سلطان الله، وأحيانًا إلى اللاأدرية أو الإلحاد. لذلك ينص القرآن على:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا﴾ تلخص حياة سادها النضال من أجل غايات دنيوية فحسب.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾.

يتكرر هذا البيان القرآني، الذي يشير غالبًا إلى مواهب السمع والبصر والقلب (ويمثل الأخير بكل وضوح الذكاء البشري بأشد معانيه عمومية)[1] بوصفها عطايا غالبًا ما يسيء الناس توظيفها. هنا يخبرنا القرآن بأنه من خلال الملاحظة والاتصال فإن الطريق إلى الوجود الصالح بحق ينبغي أن يكون جليًا واضحًا، كما ينبغي أن يكون بديهيًا، بمجرد دراسة أنواع الحياة التي حولنا فحسب، ما يجعل الناس ينعمون بالرضا الحقيقي.

وعند قراءتي لهذا السطر من الآية ارتدت أفكاري قافلة تجاه أمي، فعلى الرغم من كل الصعاب التي واجهتها، فدائمًا ما كانت تنعم بالسلام مع نفسها.

(١) [الأعراف: ١٩٥]، [النحل: ٧٨]، [الحج: ٤٦]، [السجدة: ٩]، [الحجرات: ٢٦]، [الملك: ٢٣].

دائمًا ما كانت تعلمنا أن مفتاح السعادة يكمن فى العطاء للآخرين، وكلما ذهبت أفكار تجاه أشخاص آخرين عرفتهم من أهل الرضا، أدركت أنهم هم أيضًا يحيون على نفس المبدأ.

ظللنى شعور غريب من الأسى عندما استغرقتنى ذكرياتى حول أمى؛ بسبب معرفتى بأننى لم أعاملها بشكل عادل. وعلى الرغم من أننى أحببتها واحترمتها، لكننى كنت على الدوام أظن بأنها تحيا فى وهم، وأنها كانت تمثل النسخة النسوية من «دون كيشوت».

وكنت دائمًا أتساءل عن كيف كانت بهذا العمى تجاه الحقيقة، وكيف لم يكن فى مقدورها رؤية أن الحياة ليست هى فى العطاء على الإطلاق، لكن الحياة هى فى البقاء، والمنافسة، وحماية الذات ضد حوادث الحياة وأخطارها. لكن فى مقدورى الآن أن أرى من خلال حياتى الشخصية وتلك التى للآخرين بأن ليست هذه الحياة - حياة البقاء والمنافسة - هى الطريق إلى السلام الداخلى. لو كنت قد توقفت فقط من أجل التفكير فيما رأيته يدور حولى، لكان فى مقدورى أن أتبين بسهولة أن هناك طريقين فحسب ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ فى الحياة، وأننى كنت أواصل سيرى فى طريق الندامة. ومثلى مثل الكثير من الآخرين، فقد تعاميت عن «اقتحام العقبة».

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾.

يمثل «اقتحام العقبة» اختيارًا للكلمات مثيرًا للاهتمام. فمن جانب فقد تعنى مهمة عسيرة تتطلب النضال والصبر، ويتسق ذلك مع كل شىء يقوله القرآن حول الحياة الناجحة. ومن جانب آخر، فقد يرمز «اقتحام العقبة» أيضًا إلى طريق للرقى الروحى، أى ارتفاع رأسى صعودًا إلى القرب من الله. ويرجع الفضل جزئيًا إلى القرآن فى أن أصبح المفهوم أو المعنى الأول ميسرًا علىّ فى قبوله. فى مقدورى أن أرى أن حياة قد أوقفت على مساعدة الآخرين قد تكون حياة شاقة لكنها تستحق المكافأة، وأنه على الرغم من نشدان أسلوب الحياة الموقوفة على الذات تبدو من

السهولة بمكان، لكنها ليست الطريق المؤدية إلى الرضا الفعلى. مع ذلك، لم يكن فى مقدورى رؤية الرابطة بين ارتقائنا الذاتى وبين علاقتنا مع الله، هل هناك علاقة عضوية تربط بينهما؟ هل تؤدى تضحيتنا الذاتية إلى جعلنا أشد قربًا من الله بشكل حقيقى إلى حدٍّ ما؟ وإذا كان الأمر غير ذلك، فإنه يبدو ترتيبًا على ذلك بأن مرحلة وجودنا الأرضى كان يمكن تجنبها، وكان يمكن جعلنا أكثر قربًا من الله بدون الحاجة إلى معاناة الشقاء الدنيوى. مع ذلك يحافظ القرآن على أن حياتنا على الأرض تستوفى هدفًا رئيسيًا.

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٦-١٧].

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ [الدخان: ٣٨].

إننى أفترض أن الجانب الطيب من الأمر هو أنه خلال قراءة القرآن فقد توصلت إلى رؤية أن الكثير من اعتراضاتى على وجود الله لم تكن غير قابلة للاختراق مثلما كنت أعتقد فى يوم ما، وقد دفعتنى إلى التشكك فى القواعد التى تأسس عليها تمسكى بالإلحاد.

أما الجانب غير الطيب من الأمر، فقد تمثل فى أننى قطعت بضعًا وثلاثين صفحة فقط فى قراءتى للقرآن، وما زلت غير قادر على العثور على الهدف الحقيقى الذى من أجله خلقت الحياة. لم أجد لدى أصدقائى المسلمين المساعدة المرجوة. وغالبًا ما كانوا لا يفهمون فى الحقيقة أسئلتى، وكانت الإجابة الوحيدة التى لديهم هو أننا هنا على الأرض حتى يمكن مساءلتنا فيما يبدو على نحو تحكمى عند انتقالنا للحياة الآخرة. كان من الواضح أن هذه المعرفة كافية بالنسبة لهم، وأنهم لم يحاولوا على الإطلاق النفاذ داخل عمق الأمر، لكن ذلك لم يكن كافيًا لى، وكاد اليأس يتملكنى

من العثور على تفسير عقلى. وها هو القرآن.. يجعلها تبدو كما لو كان الأمر فى غاية البساطة، مثل حالتى وأنا أشرح لطلابى أمرًا بديهيًا تعثروا فى الحصول عليه عندما كانوا يضخمون من تعقيد مسألة ما. وتساءلت بدورى إذا كنت قد فاتنى شىء، وإذا كنت أجعل من الأمر أكثر صعوبة. توصلت إلى قرار بأن المجال الطبيعى الواجب البحث فيه هو داخل الوصف القرآنى للعلاقة بين الله وبين الإنسان. كيف وصف القرآن العلاقة بين الله وبين المؤمنين، وكيف وصف المؤمنين الحقيقيين، وكيف وَصْف الله، وما العلاقة بين كل ذلك إذا كانت هناك علاقة ما؟

وقبل التوجه إلى هذا المسار يتوجب علىّ أن أذكر أن أوصاف القرآن للجانب الوهمى للحياة قد قضت على بعض اعتراضاتى على المعاناة الإنسانية على الأرض، مستعيدًا فى الذاكرة أن الناس عندما يدخلون إلى الحياة الآخرة ويوجه إليهم السؤال عن مدى المدة الزمنية التى قضوها فى الحياة على الأرض، فلن تجد لديهم إلا ذكريات مبهمة ومتباعدة، كما لو أنهم استيقظوا لتوهم من أحد أحلام النوم. هذه الصورة للحياة التى تشابه صورة الحلم قد أبرزتها وأضفت عليها قوة العديد من الأوصاف القرآنية التى تصف يوم القيامة. سوف يدوى نفير (الصور) لإيقاظ الموتى ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] سوف يندفع غير المؤمنين خارجين فى رعب من قبورهم التى يشير القرآن فى وصفها إلى أنها «أماكن نومهم» سيكون الناس سكارى ومصعوقين ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، كما سيكونون زائغى الإدراك. سوف تبدو لهم حياتهم الأرضية كما لو كانت وهمًا ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥]. سيزيغ بصر الناس مثلما يكون عليه حال المستيقظ توًا من نومه ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ [القيامة: ٧]، ثم يبدأ بصرهم فى الاحتداد ويبدأون فى الإدراك المتعمق بالحقيقة الواقعة ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، يقارن القرآن فى الآية ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا

فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢] بين الاستيقاظ من النوم وبين بعث الموتى. تومئ هذه الأوصاف إلى أنه بغض النظر عن المعاناة التى نتحملها فى حياتنا على الأرض، فإن استعادتنا لهذه المعاناة عند دخولنا إلى الحياة الآخرة سوف تشابه ما عليه حال النائم عن استيقاظه أو استيقاظها من كابوس، كل المعاناة وكل الألم الذى بدا لنا هائلاً وحقيقيّا خلال وجودنا على الأرض سوف يبدو لنا عند دخولنا المرحلة التالية من وجودنا بما لا يزيد عن وهم بعيد يشبه شيئًا من اختراع خيالنا إلى حد بعيد. لا يقول القرآن بأن وجودنا على الأرض هو وجود غير حقيقى، لكنه يقول إن المعاناة التى نخبرها خلال هذا الوجود سوف تبدو لنا غير حقيقية عندما ندرك إدراكًا حسيّا الحقيقة الأعظم للآخرة.

ما علاقة الحب بذلك؟

يتحدث القرآن مرارًا عن حب الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، [آل عمران: ١٣٤ - ١٤٨]، [المائدة: ١٣ - ١٩٣]، ﴿وَيُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، [التوبة: ١٠٨]، و ﴿يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ويحب المتوكلين ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، [الحجرات: ٩]، [الممتحنة: ٨]، و﴿يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾ [الصف: ٤]، كما أن المؤمنين يحبون الله بدورهم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وينبغى التنويه بأنه حيثما يصف القرآن الله المحب، فإن ذلك يحدث فى شبه اقتصار فى سياق علاقته بالمؤمنين المخلصين الذين وهبوا أنفسهم لحب الله المحب ووهبوا حياتهم لهذا الأمر. وعلى النقيض فإن هؤلاء الذين وهبوا أنفسهم للشر مثل المستبدين والطغاة والفاسدين والعصاة والكافرين بالله والفاسقين والمكابرين والمعتدين والمبذرين والخائنين والظالمين قد حرموا أنفسهم من علاقة المحبة هذه[١]. وعلى الرغم من أن الأمور التى نربطها نحن فى العادة بالحب من مثل الرحمة والرأفة والعطاء والحماية والولاية والعطف والصدق والاعتدال، فإن الله يفيض بكل سعة بكل هذه الأمور على كل واحد[٢]، لكن حب الله لا يعرفه بحق إلا هؤلاء الذين اختاروا أن يحملوا نصيبًا منه وأن يحبوا ربهم. بمعنى آخر فعندما يتحدث القرآن عن حب الله، فإنه يتحدث عن «علاقة طبيعية» يتشارك فيها ويدخلها بإرادة حرة الله مع المؤمنين، وهى علاقة يرفضها من الناس الكثير[٣].

ومثلما أشرنا سابقًا، يواصل القرآن القول بأن أعمالنا واختياراتنا لا تنقص على الإطلاق من ملك الله شيئًا، لكن الإنسان الفرد هو الذى يكسب منها أو يقع عليه عبء الخسارة. على ذلك يتبين أن الله يريد من خلال هذه التجربة الدنيوية تنمية أناس يشاركونه رابطة الحب[٤]. فى مقدور كل شخص العمل على تلك الرابطة أوعدم العمل عليها، لكن القرآن يؤكد على أن هناك أناسًا سوف يفعلون ذلك بالتأكيد، وأن نموهم وتطورهم يمثل بالفعل الهدف من الحياة الإنسانية على الأرض[٥].

بعدها أصبح السؤال الذى يلح علىّ هو كيف تنمى حياة التقوى من علاقتنا بالله؟ فى مقدورى أن أفهم كيف تساهم تلك الحياة فى إحساسنا بالحياة الخيرة، وكيف

(١) [البقرة: ١٩٠- ٢٠٥- ٢٧٦]، [آل عمران: ٣٢- ٥٧- ١٤٠]، [النساء: ٣٦- ١٠٧]، [المائدة: ٦٤- ٨٧]، [الأنعام: ١٤١]، [الأعراف: ٣١- ٥٥]، [الأنفال: ٥٨]، [النحل: ٢٣]، [الحج: ٣٨]، [القصص: ٧٦-٧٧]، [الروم: ٤٥]، [لقمان: ١٨]، [الشورى: ٤٠]، [الحديد: ٢٣].

(٢) [البقرة: ١٠٧]، [النساء: ١١٠]، [الأنعام: ٦٢]، [الأعراف: ١٥٦]، [يونس: ٣٠]، [الرعد: ٦]، [الزمر: ٥٣]، [غافر: ٧]، [الشورى: ٢٨].

(٣) [الإسراء: ٨٩]، [الفرقان: ٥٠]، [النمل: ٧٣].

(٤) قارن إجابة السؤال التاسع فى هذا الفصل.

(٥) [المائدة: ٥٧]، [الحجر: ٣٩-٤١]، [الإسراء: ٦٥].

تعطينا قيمة ذاتية وسلامًا داخليًا أيضًا، لكن كيف تجعل حياة التقوى منا أكثر قدرة على الانتماء لله؟ ثم ألم يكن من الممكن الحصول على هذه الرابطة بدون النضال والمعاناة على الأرض؟ ألم يكن من الأيسر والأبسط برمجتنا على حب الله؟ وظللت أقفل راجعًا إلى القضايا نفسها.

ماذا تريد منى؟

ليس من العسير العثور داخل القرآن على ما يتوقعه الله من المؤمنين المخلصين يكرر القرآن وصفهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[1] وحيث إن الهدف الرئيسى من وجودنا - حسبما ذكرنا للتو - هو أن يحبنا الله وأن نحب الله، يصبح الإيمان والمعتقد جوهريًا، حيث لا يمكننا أن نكون فى علاقة حميمة مع أحد نحن ننكر وجوده.

مع ذلك يظل من غير الواضح كيف تعلى وتوثق حياة التقوى من علاقتنا بالله. تنحصر الإجابة الشائعة فى أن الله هو الخير؛ لذلك فإن أعمال الخير من جانبنا تفرحه وترضيه، وإن أعمالنا الشريرة تغضبه، لكن الله قادر على أن يخلقنا غير خطائين، وعلى أن يستغنى عن هذه المرحلة الدنيوية ويضعنا فى الجنة مباشرة، ويصبح راضيًا عنا منذ البداية. إذا كان الإيمان بالله والحياة فى تقوى على الأرض تقربنا منه، فينبغى - تأسيسًا على ذلك - أنها تتسبب فى ذلك بأسلوب ما غاية فى الأهمية، حيث لا يصدر عن الله إلا الحق[2].

تندرج أعمال الخير الموصوفة فى القرآن تحت ما يسمى بالقاعدة الذهبية «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به»، لذلك يتضمن القرآن العديد من الأمثلة عن فعل الخير، ويشتمل ذلك على بعض المفاجآت. لقد فاجأنى إلى حد ما التشديد القرآنى الصارم على النشاط الاجتماعى وعلى «الجهاد فى سبيل الله» وعلى «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر». وعلى الرغم من أنه لا يوجد لى مانع أخلاقى يمنعنى من العمل لصالح العدل، لكننى لم أتوقع هذا التشديد الكبير على الانخراط فى الأمور

(١) [البقرة: ٢٥- ٨٢- ٢٧٧]، [النساء: ٥٧-١٢٢]، [المائدة: ٩]، [الأعراف: ٤٢]، [يونس: ٩]، [هود: ٢٣]، [الرعد: ٢٩]، [إبراهيم: ٢٣]، [الكهف: ٢- ٨٨ - ١٠٧]، [مريم: ٦٠- ٩٦]، [طه: ٧٥- ٨٢].

(٢) [آل عمران: ١٩١]، [الأنبياء: ١٦-١٧]، [المؤمنون: ١١٥]، [الدخان: ٣٨].

الاجتماعية والسياسية حسبما اعتدت على الظن والنظر إلى الدين بوصفه أمرًا شخصيًا وخاصًا. دفعنى المفهوم الخاص بأن الإيمان ينبغى له أن يضم الفعل الدءوب من أجل الإصلاح الاجتماعى إلى مزيد من التساؤل حول الرابطة بين الإيثار أو حب الغير وبين الترقى فى القرب من الله مدفوعًا بالأمل فى الكشف عن ما يدلنى، فقد أعددت قائمة مختصرة بأنواع فعل الخير التى يحض عليها القرآن، وعلى حسب المتوقع تشكلت القائمة من أفعال متعارف عليها كونيًا بوصفها من أعمال الفضيلة. يتوجب علينا على سبيل المثال، إظهار العطف [البقرة: ٨٣-٢١٥]، [الحاقة: ٣٤]، والرحمة [البلد: ١٧]، والعفو عن الآخرين [الشورى: ٣٧]، [الجاثية: ١٤]، [التغابن: ١٤]، والعدل [النساء: ٥]، [الأنعام: ١٥٢]، [النحل: ٩٠]، وحماية الضعفاء [النساء: ١٢٧]، [الأعراف: ١٥٢]، والدفاع عن المظلومين [النساء: ٧٥]، والتماس المعرفة والحكمة [طه: ١١٤]، [الحج: ٢٤]، والكرم [البقرة: ١٧٧]، [المؤمنون: ٦٠]، [الروم: ٣٩]، والصدق [آل عمران: ١٧]، [الأحزاب: ٢٤- ٣٥]، [الحجرات: ١٥]، والإحسان [النساء: ٣٦]، والجنوح للسلم [الأنفال: ٦١]، [الفرقان: ٦٣]، [محمد: ٣٥]، وحب الآخرين [الحجرات: ١٠]، [الحشر: ٩].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٦-٩٧].

ينبغى علينا حض الآخرين وتعليمهم على ممارسة هذه الفضائل [البلد: ١٧]، [العصر: ٣]، ومن خلال الممارسة والتطبيق نتعلم ونترقى داخل هذه الفضائل. وتظهر قصص الأنبياء أن الله بعث رسله ليحضوا أقوامهم وأهلهم على اعتناق هذه المبادئ الأخلاقية، لكن العديد من أقوامهم وأهلهم ظلوا على عنادهم وازدرائهم لتلك المبادئ.

لم تحتو القائمة التى أعددتها على شىء متفرد، أو على شىء يشير إلى أن المعاناة البشرية لم يكن من الممكن تجنبها، أو على دليل رئيسى يؤدى إلى فهم السبب فى أننا لم نخلق مبرمجين على حب الله، يقول القرآن ببساطة: (أنه يتوجب علينا أن

نكون عادلين، وصادقين، ورحماء، وعطوفين، ومحسنين، وكرماء، نحمى الآخرين، ونعفو عنهم، ومسالمين، وحكماء، ومن أهل المعرفة والمحبة . . إلخ).

كانت أفكارى ما تزال تدور فى حلقات مفرغة. إن فى مقدورى استيعاب أن هذه السمات تقود إلى الحصول على الصفاء والسكينة، لكنها كيف تقود إلى تيسير الارتباط بالله؟

ماذا لو كان الله واحداً منا؟

كان الأمر سيصبح من السهولة بمكان لو كان الله واحداً منّا، فعندها سوف يصبح فى مقدورى أن أفهمه بما يكفى على الأقل لرؤية الرابطة بين فعل الخير وبين الحميمية مع الإله. فى مقدورى أن أفهم الأشخاص الآخرين؛ لأننا نتشارك فى خبرات متشابهة، ومخاوف وآمال وأحلام ورغبات ومشقات ومتع متشابهة. أستطيع أن أقيم علاقات معهم بسبب أننا أصحاب وجود أساسى واحد ونختلف فقط باختلافات طفيفة، لكن الله ليس واحداً منا. ويذهب القرآن إلى الحد الذى يقول فيه إنه ليس فى مقدورنا فهم الله؛ لأن الله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وأنه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] لا يمكن للأمر أن يكون على غير ذلك، فكيف يتسنى للبشر الذين هم معرضون للموت ومحدودون وأجسادهم مادية وغير مستغنين وتكتنفهم المهالك وضعفاء ومقيدون خلقوا مربوطين بالمكان والزمان أن يفهموا الواحد الأبدى غير المتناهى والمتعالى على المادة والمستغنى بإطلاق، لا تكتنفه الحوادث وشديد القوى ومطلق العلم والحكمة وخالق كل شىء الكبير المتعال.

لو كان القرآن قد ازداد تفصيلاً فى مكان ما عن الله بما يعطينا ما يكفى من الوصف حتى تتسنى لنا المقدرة على ملء ما بين السطور. إننى لم أقطع كل هذا السبيل لكى أعثر فقط على أن الله غير قابل للإدراك - مجرد لغز مبهم - وفيما عدا ذلك فليس لدى أى أمل. . وليس من الغريب أننا معشر البشر نميل إلى تأليه ذواتنا أو إلى إضفاء البشرية على الله. وعلى الرغم من أن ذلك الأمر قد خلق لى معضلة عويصة عوضًا عن أن يأتى لى بالحل، لكنه قد منحنى الإحساس بأن الله ملموس

إلى حدٍّ ما، وأعتقد بأننى أريد الحفاظ على كعكتى وأن ألتهمها فى الوقت نفسه، أنا أريد أن يكون الله متعاليًا على الخلق علوًا كبيرًا، وأن يكون ليس كمثله شىء على الإطلاق من البشر الذين أنتمى إليهم، وأن يكون فى الوقت نفسه قابلاً للإحاطة به.

كم كنت أحمق حين أوهمت نفسى بأن فى مقدور القرآن إلى حدٍّ ما أن يوسع الهوة اللانهائية التى تفصل الله عن البشر، والتى قد تربط معاناة البشر بطريقة منطقية بالحميمية مع الإله. نحن نعانى صعوبة كبيرة فى فهم الشخصية الإنسانية، فكيف يتسنى لنا الحصول على فهم حسى للعلاقة بين الله وبين الإنسان؟ تطلب الأمر قراءة القرآن كله؛ لكى أبرهن لنفسى إن كنت مصيبًا طوال الوقت بأنه لا سبيل لفهم عقلانى عقائدى يتعلق بالوجود الإنسانى.

كنت فى النهاية على وشك الرؤية بوضوح مرة أخرى. كنت مخطئًا فيما ذكرته للتو بأننا نفهم الناس حولنا. نحن لا «نفهم» إنسانيتنا، نحن نعرفها فقط من خلال الممارسة والخبرة، ليس لدى الفهم الكامل عمن أكون أنا، وعن دوافعى وعما أتوق إليه، وعن أحلامى، وعن عواطفى، وعن ضميرى، وعن نفسيتى. أنا لا أحيط بإنسانيتى عن طريق الفكر، لكننى أعرفها من خلال كونى إنسانًا. وفى الواقع فمجمل معرفتى بالإنسانية هى معرفة ذاتية، مما يقود مع ذلك إلى نتيجة لا مهرب منها. حيث إننا لا نقدر على الإطلاق على الاقتراب من ممارسة الألوهية، وذلك على ما يبدو هو موقف القرآن، إذن فليس فى مقدورنا فى كل الأحوال أن نقترب من معرفة الله بأى أسلوب حقيقى أو ذى معنى. اتساقًا مع التشديد على أن الله ليس كمثله شىء من خلقه - وأن لا وجود حتى لشىء نعرفه يقارن بالله- فقد جعل القرآن من الوصول إلى علاقة مع الله شيئًا مستحيلاً من الناحية العملية. وعلى الرغم من أن صاحب النص (القرآن) قد أدار حملة فى غاية الذكاء، وقدم قطعة لا تضاهى على المستوى اللغوى والعقلى، فإنه لم يقدر على توفير تفسير متسق وكامل فيما يتعلق بالسبب الكامن وراء وجودنا على الأرض. بذلك فلا مجال لأن يشعر صاحب النص بالخجل من أنه لم يستطع هو ولا كل الآخرين إكمال ما لا يمكن تجنبه من النقص، حيث وقعوا فى شرك الفجوة اللانهائية التى تفصل ما بين الله وبين الإنسان.

مثل ذلك بالنسبة إلى إدراكًا أجوف ولم ينتبنى شعور من أى نوع بالانتصار، حيث كانت هناك أثناء قراءتى للقرآن أوقات كنت فيها على وشك الاستسلام والخضوع عندما اجتاحتنى كلمات صاحب النص - أو صوته -وأعطتنى الشعور بأن الله وحده هو القادر على مخاطبتى من خلال هذا النص ولا ينتابنى الخجل من الاعتراف بأن دموعى قد غلبتنى فى العديد من المناسبات حتى شعرت شعوراً حقيقيًا فى بعض الأوقات بأننى فى معية قدرة هائلة ذات رحمة. وقد أتتنى هذه اللحظات «الروحية» على الدوام على حين غرة.

وقد حاولت حتى مقاومتها، والتخلص منها، لكنها كانت عادة فى غاية القوة وغاية التشبع بحيث يتعذر مقاومتها، كما استمرت مقاومتى فى الخفوت مع تقدمى فى الولوج داخل النص. مرت علىّ لحظات كنت فيها على شبه اليقين بوجود إله، عندها شعرت بحضور الواحد الذى سبقت معرفتى به على الدوام، لكننى قاتلت من أجل نسيانه. أصبحت لا أعرف إذا ما كنت فى حال أفضل أو أسوأ بعد قراءتى القرآن لكن ما أصبحت أعرفه هو أننى تغيرت، وأننى لن أعود على الإطلاق إلى الوثوق التام فى إلحادى مرة أخرى.

برغم ذلك كان الوقت قد حان للاستمرار فى حياتى، والتوقف عن العذاب حول وجود الله، والتوقف عن ترك تلك المسألة تعترض سعادتى. أول الأشياء الهامة التى اجتذبتنى إلى سان فرانسيسكو هو أنها مكان يعيش فيه الناس حياتهم حتى الثمالة. وبعد انقضاء واحد وعشرين عامًا من التدريس، كنت على أهبة الاستعداد لكى أحصد ثمار مجمل أعمالى، كان وقت بداية استمتاعى بحياتى قد أزف، كانت لدى الدوافع والفرصة والإمكانات. ما زلت شابًا وعزبًا ويعتبروننى حسن الطلعة وأحوز مهنة محترمة، كان الوقت وقت الانغماس فى المتعة.

ادعونى باسمى

عقب ذلك وقبل مرور وقت طويل على انتهاء قراءتى للقرآن كله، وربما بعد انقضاء حوالى أسبوعين، طاف القرآن بفكرى. لقد جاء متسللاً إلىّ بنعومة وعلى غير توقع -وأظن كنت فى حينها أشاهد مباراة كرة القدم الأمريكية فى التليفزيون- كما لو كان فكرة ثانية تخطر على البال متسللة إلى داخل الوعى.

ليس حقيقيًا أن القرآن يخبرنا القليل عن الله، بل هو يخبرنا بالكثير، لكن لسبب أو لآخر فلم أعر انتباهي إلى ذلك. لو كنت قد ألقيت نظرة على افتتاحية أية سورة، أو التفت ناحية أية صفحة، لكنت قد وجدت ما كنت أبحث عنه لو كنت فقط قد قرأت بعناية؛ لأن هناك مئات الأوصاف في القرآن عن الله وهي تربط أفعال الخير بالترقي إلى القرب من الله، وعلى الرغم من أنني قد قرأت القرآن من الغلاف إلى الغلاف مدققًا في كل آية ومحللاً لكل آية على وجه التقريب طوال وقت القراءة، فقد أسقطت عقليًا إشارات وإحالات النص الوفيرة إلى صفات الله، ترى هذه الصفات التي غالبًا ما تجيء للفصل بين الآيات مثل علامات الترقيم وفي شكل نموذجي كبيان وصفي مزدوج وبسيط مثل ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء: ١٢٩]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٨]، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]. ويشير القرآن إلى هذه الأسماء بشكل جمعي بوصفها ﴿الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

لقد ظننت أن القرآن يستخدم الأسماء الإلهية بشكل رئيسي بوصفها أدوات لفظية من أجل تتويج الآيات والفصل بين الموضوعات، وعلى الأرجح كان هذا هو السبب الرئيسي وراء أنني قد مررت على هذه الأسماء بسرعة بدون أن أعيرها ما يلزم من الفكر الجاد. وشعرت في الحال أنني ربما قد قللت من أهميتها، وبدأت في كتابة ما استطعت تذكره من الصفات الإلهية بسرعة. (الله هو الرحمن الرحيم

الغفور الرءوف السلام الودود العدل الكريم الخالق القوى العليم الحى الحكيم الحافظ الحق . . إلخ) .

كانت الرابطة التى كنت أبحث عنها رابضة أمامى مباشرة هنا، حيث تقاطعت هذه القائمة بشكل كبير مع القائمة الأخرى التى صنفتها من قبل لتحوى الفضائل التى يحتاج الرجال والنساء إلى تنميتها . كان المعنى الضمنى فى غاية الوضوح : حيث إن الله هو جماع واكتمال الفضائل التى يتوجب علينا اكتسابها، فكلما ازداد رقينا فى هذه الفضائل، كلما تعاظمت مقدرتنا على الإحساس بوجوده -جل وعلا . كلما ازددنا رقيًا فى الرحمة، كلما تعاظمت مقدرتنا على معرفة الله الرحيم بلا نهاية، وكلما ازدادت معرفتنا بكيف نغفر للآخرين، كلما تعاظمت مقدرتنا على معرفة الله الغفور بلا حد . . وينسحب الأمر نفسه على الحب والحق والعدل والرأفة . . وهكذا . كلما ازداد ترقينا فى هذه الفضائل، كلما تعاظمت مقدرتنا على التلقى والممارسة لصفات الكمال المتعلقة بالله .

سوف نلتمس العون فى بعض القياس . كان لى فى يوم ما سمكة ذهبية وكلب رعى ألمانى رائع، ولدى حاليًا من الأطفال بنات ثلاث . فى مقدور سمكتى الذهبية لكونها محدودة للغاية فى الذكاء وفى النمو ألا تعرف وتشعر بحبى ورحمتى بها إلا على مستوى منخفض نسبيًا، أما كلبى الذى هو أكثر تعقيدًا وهو حيوان يتمتع بذكاء يفوق السمكة، فكان فى مقدوره الشعور بالدفء والتعلق بالآخر على مستوى أعلى بكثير، لذلك ففى إمكانه الشعور بالحب والرحمة اللذين أغدقهما عليه بدرجة تعلو كثيرًا عن السمكة . كذلك فإن بناتى - ويرتفع الأمر كلما ازداد نضجهم - يقدرن على الإحساس بمدى حبى لهن وعنايتى بهن على مستوى لن يستطيع الكلب استيعابه على الإطلاق؛ وذلك بسبب أن بناتى يملكن الإمكانات المتعلقة بالمعرفة الأولية والمباشرة من خلال عواطفهن الخاصة ومن خلال علاقتهن التى تتسم بمشاعر أعمق وأغنى من تلك التى لكلبى . يصبح القياس كالتالى : كلما تعاظم ما نحوزه من خير، كلما تعاظمت قدرتنا على الشعور وعلى الانتماء إلى الخير المطلق الذى هو الله .

ومن أجل أن نزداد نموّا فى الاقتراب من الآخرين، فنحن نتقرب إليهم عن طريق ما نتشارك فيه معهم، عندما نرغب فى الاقتراب من الآخرين جسديّا، فنحن نضع أجسادنا قريبة من أجسادهم، ومن أجل أن نقترب من الآخرين فكريّا، فنحن نتقرب إليهم من خلال العقل فى محاولتنا للارتباط بهم فكريّا من أجل الوصول إلى تفاهم مشترك. ومن أجل الاقتراب من الآخرين عاطفيّا، فنحن نتقرب إليهم من خلال العواطف باذلين الجهد للحصول على التقاء عاطفى. حيث إن الله هو الينبوع المتعالى لكل الكمال والخير، فنحن نتقرب إليه من خلال الخير الذى طبعه بدواخلنا أو فطرنا عليه. لقد أخبرنا القرآن بأن الله نفخ شيئًا من روحه داخل كل نفس بشرية ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، مما يشير إلى أن كلاّ منا يأتى إلى هذا العالم، وبداخله نفحة من الصفات الإلهية، مع ذلك فالأمر موكول لنا، ومتروك لاختيارنا فى أن تنفتح نفوسنا متطلعة لإثبات هذه النفحة من خلال تلقى الإشعاع الإلهى اللانهائى والعيش به وفيه.

بدأت أجزاء الصورة تتجمع مع بعضها. الأمر الحقيقى أنه ليس فى مقدورنا أن نقترب من فهم الله، لكن يمكننا معايشة أسمائه الإلهية - وجوده - بكل ثراء بوصفنا متلقين للخير من خلال الآخرين، كما بوصفنا - بشكل أكثر مباشرة وأكثر حميمية - فاعلين للخير. فى كل لحظة نظهر فيها كرمًا حقيقيّا تجاه الآخرين، فنحن نكتسب خبرة من الكرم اللانهائى الذى ينبع ويصدر عن «الكريم». فى كل مرة نتسامح فيها مع عدوان الآخر، فنحن نعايش شيئًا من المغفرة اللانهائية التى تصدر عن الغفور. فى كل مناسبة نصمد فيها من أجل حقوق المظلومين، فنحن نترقى بعض الشىء داخل الحماية اللانهائية التى يوفرها الحافظ. فى كل مرة نتحرى فيها الأمانة والحق فنحن نقتطف شيئًا من الحق الذى ينبع عن الله الحق. نحن نصبح من خلال هذه السبل الأدوات التى يعيش بها الآخرون، ويحسون بوجود الله. تسرى رحمة الله ورأفته ووده وكرمه وسلامه.. إلخ من خلالنا؛ لتشمل الذين حولنا مما يجعلنا شركاء فى هذا العطاء والإمداد الإلهى؛ لذلك فنحن نملك إمكانية معرفة الله على مستوى أكثر عمقًا مما فى مقدورنا تجاه معرفة أى رجل وأية امرأة؛ لأن وجوده

يصل إلى الآخرين من خلال كينونتنا، كما أننا نحس ونعايش شيئًا من خيره المطلق كما لو كان من ذاتنا أو يخصنا. يجعلنا ذلك قادرين على الوصول إلى مستوى من الحميمية مع الله لا ترقى إليه ولا تقاربه أية علاقة إنسانية على الإطلاق.

حتى لو لم نكن نعى بخبراتنا عن الإلهى - أو حتى كنا من المنكرين لوجود الله- فنحن نحس بأسماء الله رغم ذلك، لكننا نصر على صممنا وبكمنا وعمانا تجاه منبع هذه الأسماء. ووفقًا للقرآن يمثل ذلك أعظم تراجيديا - الخسران المبين - حيث إننا نحرم أنفسنا من وسائل النمو والترقى قربًا من الله. نحن نقترب من معرفة شىء من الخير، بينما نغلق نفوسنا دون الرحمة غير ذات الحد التى صدر عنها ذلك الخير، مما يعود بنا مرة أخرى إلى أهمية الإيمان المقرون بالعمل الصالح.

يتوجب أن نداوم على زيادة الإيمان، ليس بأداء أفعال الخير تجاه الآخرين فقط، لكن من خلال التدريب الروحى أيضًا، والذى يتضمن شهادة التوحيد والصلاة والصوم وإيتاء الزكاة والحج والتأمل والتفكر والتعلم. ينبغى علينا الارتقاء بروحانيتنا من أجل أن نكون على الدوام أكثر إدراكًا لحضور الله الطاغى الذى يتخلل حيواتنا، كما ينبغى علينا العمل من أجل أن نكون على الدوام على أهبة التعرف على آيات الله التى تجل على الحصر والتى هى حولنا فى الطبيعة، والأكثر أهمية فى أنفسنا وفى الآخرين، حيث إن كل فعل من أفعال الكرم، وكل عمل نبيل، وكل إظهار مخلص للفضيلة هو ظهور لله. قد لا نرى الله بأعيننا، لكننا نعرفه بقلوبنا التى هى عرش الفضيلة والروحانية داخل صدورنا.

لذلك تمثل الطقوس الدينية عنصرًا مهمًا فى البرنامج القرآنى للرقى البشرى، وأنا أستخدم كلمة «الفرائض» هنا عوضًا عن كلمة «العبادات»؛ بسبب أن الأخيرة ذات مفهوم أشمل داخل القرآن بما يتجاوز الفرائض الدينية. كلمة «العبادة» فى اللغة العربية تعنى حرفيًا «خدم» أو «خضع بنفسه إلى» وتشمل أى فعل خير أنجز عن إيمان بالله، وفى حين تمثل الفرائض الدينية جزءًا صغيرًا نسبيًا من العبادة، لكنها تلبى بعض الحاجات الإنسانية الضرورية، ومثلما تساعدنا الفرائض على تنقية قوانا الروحية مثلما أشرنا سابقًا، فإنها تمدنا أيضًا بوسيلة مباشرة لتوصيل حبنا إلى الله.

وينص القرآن على أن نعم الله على الإنسان لا تحصى، وبذلك نصبح إلى حد بعيد على جانب التلقى فى علاقتنا مع الله[1]. وحيث إن العلاقة السليمة تتطلب أن يكون لطرفيها نصيب من العطاء، فإننا حين نساعد شركاءنا فى الإنسانية فإننا نبين حبنا لله، لكن ما ينقص ذلك هى الفورية والحميمية التى للتواصل المباشر. تقدم لنا الفرائض الدينية وسيلة مباشرة للعرفان بجميل الله علينا.

يوفر الله لنا من واقع حبه إيانا سبيلاً لنرد إليه ما هو فى الحقيقة ملكًا له بالفعل[2]. هذا الأمر يشبه ما تفعله بناتى حين يسألننى أن أعطيهن مالاً من أجل أن يشتروا هدية لى. أنا فى غير حاجة للهدية، وهن يعطيننى فقط ما هو ملكى بالفعل، لكننى أحب الفكرة القابعة خلف العمل ذلك، كما أعرف أن ذلك سوف يقربنا أكثر من بعضنا البعض، يعلن القرآن بوضوح تام أن الله لا يحتاج لشىء من خلقه، لكنه يحب النية التى وراء أدائنا للفرائض[3] ويعلم أن ذلك يقربنا منه.

ينبغى التشديد على أن الفرائض لا تمثل طريقًا أحادى الاتجاه فى الاتصال، حيث يمكن لها أن تكون من أشد الوسائط والوسائل قوة فى المعايشة المباشرة والإحساس بصفات الله. يقول المؤمنون بأنهم يعيشون أحيانًا حميمية ووصلاً خاصًا بينما هم منخرطون فى هذه الفرائض، ربما يكون ذلك نتيجة لحقيقة أنهم أثناء الفرائض يركزون بشكل خاص على علاقتهم بالله. لذلك فإن بعض المؤمنين وبخاصة الذين يبدو أنهم قد حازوا مستويات عالية من التقوى والتواضع والسلام الداخلى، يعايشون هذه الحميمية مرات أكثر وبقوة أكبر عن الآخرين. مرة أخرى فإنه يبدو أن الترقى فى الخير يرفع ويزيد من قابلية المؤمنين للتلقى والأخذ عن الصفات الإلهية، على مستوى إمكاناتهم فى امتصاصها داخل شخصياتهم وأيضًا على مستوى قدرتهم على المعايشة والإحساس بهذه الصفات خلال أدائهم لفرائضهم الدينية. لكن لا تمثل معايشة الحميمية الإلهية والشعور بها فى حياتنا هذه بالكاد إلا النزر

---

(١) [إبراهيم: ٣٤]، [النحل: ١٨].

(٢) [النساء: ٧٨-٧٩].

(٣) على سبيل المثال ذبح الأضاحى خلال موسم الحج بنص القرآن على: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

اليسير بالنسبة إلى معايشتها فى الدار الآخرة عندما تزاح وتسقط الأقنعة والغرور الدنيويان.

تعرض السؤال المتعلق بأولوية الإيمان أم العمل إلى كثير من النقاش داخل التراث الدينى لعديد من الأديان. من وجهة نظر القرآن يعتبر هذا السؤال من الخطأ البديهى؛ بسبب أنه يشدد على مفاضلة فى موضع لا يتطلب ذلك، حيث إن الاثنين جوهريان ويعضدان بعضهما البعض. ينبغى للإيمان أن يدفع إلى عمل الخير الذى يزيد بدوره من إمكانية المرء على تلقى ومعايشة أسماء الله الحسنى مما يتوجب لها بدورها أن تزيد من إيمان المرء، وذلك بدوره ينبغى له أن يرفع من رغبة المرء على فعل الخير وهكذا، فكل واحدة منهما من فاعليات الأخرى، صاعدين إلى أعلى فى حلزون مستمر تجاه مصدر جميع الخيرات. عندما نترقى من خلال الفضائل نجد الله بوصفه المنبع اللانهائى، وعندها ترتقى مقدرتنا على معرفته وعلى الارتباط به -جل وعلا- برباط الحب.

تبدأ قصة آدم فى القرآن بإعلان الله عن أنه على وشك أن يجعل فى الأرض خليفة؛ سوف يمثل الله ويتصرف باسمه ونيابة عنه [البقرة: ٣٠] يقدم الأمر بوصفه إنابة ذات خطر عظيم، وبوصفها تفويضًا تُعلن به الملائكة، أنها اصطفاء نبيل من أجله خلق كل واحد منا. وعندما قرأت هذه الآية فى المرة أولى صعقت بمثل ما صعقت به الملائكة، إذْ كيف يتسنى للإنسان هذا المخلوق الشديد التمرد والتخريب أن يمثل الله على الأرض؟ مثلما رأت مثل الملائكة جانبًا واحدًا من جوانب الإنسانية وهو الميل ناحية فعل الشر وإلى «من يفسد فيها ويسفك الدماء»، وبالطبع هناك الكثير من الرجال والنساء الذين لا يمثلون الله تمثيلاً حسنًا، لكن قدرتنا على فعل الشر والتدنى من خلاله تأتى مترافقة مع قدرة معاكسة لفعل الخير والترقى من خلاله، ويبدو على الإجمال أنه ينبغى أن يكون هناك خير أكثر من الشر فى هذا العالم وإلا كانت سلالتنا الإنسانية قد دمرت نفسها من وقت بعيد. دائمًا ما كان هناك أيضًا أناس يضربون أمثلة عظيمة من الخير، وقد أوقفوا نفوسهم بكل تواضع على تقديم العون للآخرين من أجل حبهم لله، هذه هى الخلافة التى ينادى بها القرآن ويتطلبها منا. إنها تعنى ما يعلو عن مجرد إيصال أو رسالة أو تطبيق لأمر

إلهى، إنهـا تعنى أن نصـبح وكـلاء عن الله على الأرض، ومن خـلالنا يعـايش الآخرون ويشعـرون بصفاته -جل وعـلا- . يتحول هؤلاء الناس حيث حلوا إلى مصاف يمر من خلالها النور الإلهى ويصل خير الله إلى الآخرين من خلالهم .

وكلما ازداد ترقيهم داخل الخير نتيجة لتفانيهم وتضحيتهم الذاتية وحرصهم على التعلم، تتعاظم قدراتهم على التلقى والمعايشة والتمثيل لأسماء الله الحسنى، ولا تمثل معايشتهم لحضور الله فى هذه الحياة الدنيا إلا مجرد ظل صغير لما ينتظرهم فى الحياة الآخرة .

التراجع

دائمًا ما أثار «محمود قنديل» إعجابى . فى مقدوره أن يكون مسليًا إلى أبعد الحدود . كان حسن الطلعة، يجيد النكتة، وساحرًا، وأنيقًا، ومحبًا للاستمتاع . وعلى الرغم من كونه صغير السن ولا يملك ثروة كبيرة- رغم مظهره الذى يشير إلى ذلك- فقد استطاع إلى حد ما أن يصبح جزءًا من مجتمع سان فرانسيسكو . عندما كنا نذهب أنا وهو للتسكع بالمدينة كان الأمر يشبه أن تكون برفقة شخص مشهور- كما لو كنت بصحبة نسخة شابة شرق أوسطية من «دونالد ترامب» تتحلق الناس حوله فى كل مكان نذهب إليه، وبينما كان «محمود» محبًا لجذب الانتباه، ومستمتعًا بالرفاهية، فلم يكن أى منها يثير رهبته . لم يكن من نوع الأجنبى الذى يفغر فاه مدهوشًا بأساليب الحياة الخاصة بالأغنياء والمشاهير، بل بدا أن الأمر كله لا يثير انبهاره بالمرة وأنه فى غاية الاعتياد عليه . كان على كامل سجيته عندما يكون برفقة صفوة المجتمع .

كان فى مقدور «محمود» أيضًا أن يتبنى الجانب الدينى الخالص، وقد يتحدث فى بعض الأحيان عن الإسلام، ويدافع عنه بحرارة . وبين الحين والآخر يلجأ إلى عزل نفسه عن محيطه ويتفرغ للصلاة والصيام . وأحيانًا ما يومئ إلى الشعور بالذنب الذى يشعر به نتيجة أسلوب الحياة الذى كان يحياه . كان محسنًا للغاية وفى غاية الحساسية تجاه معاناة الفقراء . قد يفرغ كل ما فى حافظة نقوده استجابة لسائل ويبدو نادمًا إلى حد كبير لكونه لم يعطه ما يكفى . كنت أجد مناقشة الدين

مع «محمود» من السهولة بمكان، حيث إنه كان صديقًا رائعًا، ولم يبد أية رغبة فى تحويل الآخرين إلى الإسلام، كل ما كنت احتاجه هو الوصول إليه عندما يكون بمفرده بعيدًا عن التجمعات.

دعانى «محمود» إلى شقته ذات ليلة على العشاء مع عائلته، عندما وصلت إلى هناك دعتنى شقيقته «راجية» إلى الدخول، حيث كان «محمود» يبدل ملابسه فى حجرة النوم، جلست فى غرفة الاستقبال منتظرًا إياه. كان «محمود» يحب الموسيقى بجميع أنواعها- من الروك أند رول، إلى الكلاسيكية- لكنْ كان هناك فى تلك الليلة نغم وصوت غريب يأتى من مذياع المسجل الخاص به. كان نغمًا بطيئًا وإيقاعيًا وشديد التدقيق وترتيليًا ويبدو أنه باللغة العربية، وبدون موسيقى مصاحبة، مجرد صوت منفرد ومنخفض النغمة يعيد فى تكرار وتدقيق كل حرف ساكن وكل كلمة. كان للترتيل قافية ذات قرع وتلازم، وإيقاع قوى ومعقد ومنتظم وذى جرس، ويبدو كما لو كان يخمد اتقاد وحماسة طاغيين. لم أكن قد سمعت شيئًا كهذا فى حياتى على الإطلاق.

عندما دخل «محمود» إلى الغرفة اتجه ناحية المسجل وأغلقه، وعندما سألته عن نوع هذه الموسيقى التى كنت أستمع إليها للتو، أخبرنى أن ذلك ليس بموسيقى، لكنه شريط مسجل لواحد من الذين يرتلون القرآن.

سألته: «هل لكل القرآن هذه القافية وهذا الإيقاع القويان؟». «إنه يشبه فى الأذن وقع الغناء- هل هو من الشعر؟»

أجابنى بنعم على السؤال الأول وبالنفى على السؤال الثانى، وأخبرنى أن للشعر العربى أسلوبًا متميزًا فى غاية الخصوصية وأن أسلوب القرآن مختلف تمامًا عن الشعر..

لم أستطرد فى توجيه الأسئلة عن القرآن إلى «محمود» فى تلك الليلة. لقد كنت بالفعل منبهرًا بتألق وسطوة القرآن عبر الترجمة، لكن لم يدر بخلدى أن فى مقدوره أيضًا أن يحوز مثل هذا الجمال الترتيلى الفطرى. عندما بلغت من العمر ثمانية وعشرين عامًا ظننت أننى قد شيدت خطوطًا دفاعية من الجدل ضد وجود الله

غير قابلة للاختراق، لكننى خلال مسيرتى داخل القرآن رأيت هذه الخطوط وهى تتساقط واحدًا بعد الآخر وقطعة بعد قطعة. وبحلول وقت انتهائى من قراءة القرآن لم يتبق لدى إلا اعتراض رئيسى واحد وهو أن ليس فى مقدورى إدراك الرابطة بين فعل الخير وبين النمو والترقى قربًا من الله. وعندما اكتشفت فى النهاية تلك الرابطة الجوهرية من خلال التفكر فى الأسماء الإلهية، فإن بساطة هذه الرابطة أثارت دهشتى؛ بسبب عدم مقدرتى على تجميع أجزائها بمفردى. بذلك قدم القرآن لى العون فى طريق استنارة وتنظيم وتحديد أولويات أفكارى، وكذلك فى تحليلها. لقد أوفى القرآن بالوعد الذى قطعه؛ لقد قدم إلىّ الهدى من خلال تساؤلاتى مع شرط توافر النية على مواجهة الإجابات، لكننى لم أعد على يقين مرة أخرى بما يعنيه ذلك، حيث إن لدى القرآن كما لدى أنا نظرتين مختلفتين تجاه ما كنا نناضل فى سبيله. كنت - أنا- أحاول الفوز بمجادلة، لكنه - القرآن - كان يحاول الفوز بنفس إنسان، حيث يداوم على التحذير من التبعات الفظيعة المترتبة على إنكار آيات الله.

لقد شعرت بأننى كنت دائمًا أمثل الجانب الهجومى فى معظم مواجهاتى مع القرآن وأوضح وجهة نظرى ضد القرآن بصراحة جارحة. وشعرت على الدوام أننى أملك فى النهاية الرد المفحم. أصبحت أشعر الآن أننى على الجانب الدفاعى. ربما كنت معظم الوقت مثل «جورج كاستر» لقد كنت واقعًا فى شرك مواجهة طوفان من النقائض، لقد واجهتنى حقيقة تخبطى فى لحظة الانكشاف الفريدة التى تذكرت فيها الأسماء الإلهية. عندها فقط شعرت بأننى، أسبح ضد التيار. وعلى الرغم من أننى كنت فى حالة تراجع وانسحاب فلم أكن على وشك الاستسلام. شعرت بالحاجة إلى تجميع أفكارى، وإعادة مراجعة موقفى، وأن أضع بعض الأسئلة موضع الاعتبار.

بدا القرآن لى مالكًا لرؤية شاملة تجاه الحياة. وإحدى النقاط الباعثة على الصدمة والتى يقدمها القرآن هى أن الحياة على الأرض ليست بعقوبة على خطيئة أحد أو على فطرته الخاطئة، لكنها طور من أطوار النمو والترقى فى مسيرتنا الخلقية. لم يسقط الخلق من على عرش النعمة، لكنهم قد كانوا فى وقت ما من الماضى أكثر بدائية ولم يكونوا قد حازوا النضج العقلى والفكرى للتمييز والاختيار بين الخطأ

والصواب، لكن القرآن لا يقدم هذه الحالة بوصفها الحالة المثلى. ما يميز الكائنات البشرية عن بقية الكائنات هو ذكاؤهم الذى يجعل منهم ذوى قابلية للتعلم فى غاية التفوق، وهذه هى الميزة التى جعلت إمكاناتهم تفوق وتعلو على مخلوقات الله الأخرى. ينبأنا القرآن فى مستهل قصة آدم أن البشر سيكونون قادرين على خلافة الله فى الأرض. وقد احتاجوا فى البداية إلى تنمية القدرة على تمييز الخير والشر -لاحتياجهم لأن يصبحوا وكلاء أخلاقيين- ثم لم يصبحوا على استعداد إلى تحمل مسئولية الخلافة إلا بعد ما حاز الرجال والنساء على المقدرة على الاختيار بين الاثنين.

إن مهمة العمل بوصفنا ممثلين لله على الأرض هى مهمة شاقة، تتطلب التواضع والتضحية بالذات والصبر. إنها تعنى النضال من أجل أن نصبح أداة ووسيلة يوصل الله من خلالها خيره إلى الناس الآخرين. تستلزم الترقى فى الفضائل التى تجد كمالها ونهايتها فى الله، وأن نتشارك مع الآخرين فى كل ما نملكه من خير قدر المستطاع. يؤكد القرآن على أن هذه المهمة لن تكون سهلة- إنه يصفها بأنها اقتحام العقبة- لكنه يعد بأن الثواب والجزاء سوف يكون عظيمًا. لن يحصل المتقون فقط على السلام الداخلى وعلى العيش فى خير، لكن سوف ترتقى أيضًا إمكاناتهم على معايشة وممارسة حب الله الذى بغير حدود؛ لأنه كلما ازددنا اقترابًا من معايشة ومن ثم معرفة جمال الله تتعاظم مقدرتنا على الانتساب إليه والارتباط به فى حياتنا هذه، وكذلك فى الآخرة.

يحمل هذا المفهوم عن الهدف من الحياة جاذبية عقلية، لكن هل يقدم تفسيراً لوجودنا على الأرض؟ ألم يكن من الممكن أن نخلق من الأخيار ومفطورين على أن نكون من أهل الرحمة والرأفة والكرم والعدل والحق بدون أن يفرض علينا الحياة خلال الآلام والمشقة المتعلقة بالنضال فى هذا العالم؟

ليس الزمن هو المعضلة هنا. أنا لا أتساءل عن الفترة الزمنية الخاصة بهذه المرحلة من مراحل خلقنا؛ بسبب أن القرآن يخبرنا بأن الزمن هو زمن وهمى، وأن الله يتعالى على البيئة المكانية - الزمانية التى نحيا نحن فيها. مجمل الزمن بالنسبة إلى الله واحد- مجرد لحظة سرمدية مفردة خارجة عن الزمن - لذلك فسواء أكان خلقنا

قد حدث على مدى العديد من القرون أو فى جزء من الثانية فلا يتصل ذلك بالموضوع؛ لأن الأمر بالنسبة إلى الله ليس إلا أمراً مفرداً «كن فيكون»، وعلى الرغم من أننى لا أوجه اعتراضًا إلى الزمن، فإننى أتساءل عن بعض مظاهر الخلق المعينة وبخاصة المعاناة الإنسانية. إحدى الأفكار المثيرة للاهتمام بشدة والتى يقدمها القرآن هى أن الله خلاق (دائم الخلق ويعيده) كما أنه يخلق أطواراً. لا تظهر موضوعات الخلق فى شكلها النهائى على حين فجأة، لكنها تمر من خلال استمرار الأطوار متتابعة ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٤]، [النمل: ٦٤].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦].

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المؤمنون: ١٩-٢٠].

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: ٦].

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦-٣٨].

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٤]

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً (١٥) فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الانشقاق: ١٤-٢٠]

تتضمن عمليه الخلق من جانب الله علاوة على خلق الذوات والإتيان بها إلى عالم الوجود، إسباغ هدايته وتنشئته لهذه الذوات فى مدارج الترقى والنمو. لذلك يستمر المخلوق فى أطوار متتابعة، إنها كينونة دائمة التغير. إن مجمل العالم الظاهر أثره المدرك بالحواس هو عرضة للتغير والتقلب.

يبين القرآن فى إشاراته العديدة إلى صنائع الطبيعة كيف يهب الله كل شيء حى بيئته وخلقته التى تلائم إلى حد الكمال وجوده ونموه. تتوافر للشجرة التربة والشمس وماء المطر والهواء والشفرة الچينية وكل شيء آخر تحتاجه لكى تحيا وتنمو. ويمكن قول الشيء نفسه على كل كائن آخر بما فيهم الإنسان. مع ذلك يذكرنا القرآن بأن نمونا الأولى فى هذه الحياة ليس هو النمو البدنى المادى بل هو النمو الروحى، نحن هنا لكى ننمو ونترقى من خلال الفضائل التى تعكس صفات الكمال التى لله. يترتب على ذلك أنه ينبغى أن يصبح السؤال: هل وهبنا بيئة وخلقة وتركيبًا يتلاءم بدقة مع ترقينا الروحى؟ وإذا كان الأمر كذلك، هل سيكون التلاؤم قائمًا إذا ما أزيلت المعاناة من حولنا؟

إن مفتاح الوصول إلى حقيقة ما يكمن فى العثور على الصحيح من الأسئلة، تلك التى تعزل وتحدد القضايا المحورية. عندما نبدأ مسيرتنا الاستقصائية فعادة ما تكون أسئلتنا عامة وتحتوى على العديد من الأسئلة- الفرعية بداخلها، لكن لو كنا ناجحين، فإننا عندها نقدر على تقسيم بحثنا بكل دقة إلى عدد من الأسئلة غير القابلة للاختزال بغض النظر عن كثرتها أو قلتها، ثم نجيب عليها واحداً بعد الآخر. هذا هو ما ساعدنى القرآن على فعله. لم يقدم لى القرآن إجابات واضحة على الدوام، لكنه وفر لىّ الهدى خلال مسيرة التساؤلات.

عندما وصلت إلى حد السؤال السابق، لم أعد فى حاجة إلى البحث المضنى عن إجابة. إنه من البديهى للغاية بأننا قد توافرت لنا بيئة وخلقة أو تركيب يتلائمان تمام الملائمة مع الترقى والنمو فى الفضيلة. هناك الكثير البالغ الكثرة من الأمثلة التى تخصنا، من خلال تاريخ الناس الذين ارتقوا إلى مستويات رفيعة من الخير. بل إن هناك العديد من الحالات الدرامية لمجرمين تحولوا بالفعل وقلبوا حياتهم رأسًا على عقب؛ ليصبحوا علامات على الفضيلة. فى حياتى أنا الخاصة صادفنى ما

يفوق الحصر من الفرص التى لاحت للاختيار بين الصواب وبين الخطأ ومنها تعلمت التأثيرات التدميرية للشر، كذلك المنافع الإيجابية للخير. لقد توصلت من خلال الملاحظة والخبرة إلى معرفة أن كُلاً من السلوك الخاطئ، وكذلك السليم، يمكن لهما أن يتحولا إلى عادة تتخلل نسيج شخصية المرء.

كما أصبح من الواضح لى أيضًا الآن أن المعاناة هى ضرورة جوهرية من أجل ترقينا فى الفضيلة. ويسرى الأمر نفسه على الفكر والاختيار الإنسانيين. يكرر القرآن التأكيد على أن لكل من المعاناة والذكاء والاختيار أدوارًا جذرية تلعبها فى تطورنا الروحى. لكى تتعلم الرحمة وتنمو فيها - على سبيل المثال- فمن غير المنطقى أن تصل إلى ذلك بدون التعرض إلى المعاناة. يتطلب الأمر كذلك الاختيار، وهو المقدرة على الوصول إلى الشخص صاحب الحاجة أو إهماله وتجنبه. الذكاء ضرورى من أجل أن يتمكن المرء من تقدير حجم ما سوف يستثمره من ذاته إظهارًا للرحمة للمحتاجين. وبالمثل لكى نكون صادقين فإن الأمر يستلزم اختيار ألا نكذب، ثم يعلى من قيمة هذا الاختيار أن الأمانة قد تقودنا إلى الخسارة الشخصية وإلى الألم، وذلك مما يمكن للمرء أن يتنبأ به من خلال استخدامه لعقله. إن قسم وعهد الزواج المشهور اللذين يطلبان من الزوجين أن يظلا مخلصين لبعضهما البعض فى المرض والصحة، وفى الفقر والغنى حتى الموت والفراق، يعلنان بكل وضوح قواعد الاختيار والمعاناة والعقل داخل الحب. ذلك أن هذا القسم يتطلب من الزوجين أن يختارا أن يظلا إلى جوار بعضهما بغض النظر عن المعاناة التى سوف يلقيانها، كما يعلمان تمام العلم ما يتضمنه ويستوجبه هذا الأمر. أن تتسامح فهو اختيار بإعطاء العذر لمن ارتكب فعلاً خاطئًا فى حقنا حتى وإن كنا نفهم الشر الكامن فيما فعلوه، ويمكن قول الشىء نفسه على جميع الفضائل. إن الذكاء وإرادة الاختيار والمعاناة هما فى غاية الحيوية من أجل معايشة الفضائل والترقى فيها.

وعلى الرغم من أن الفضائل هى من الأمور المجردة التى تستعصى على التحليل، فمن المستحيل على وجه التقريب تصور هذه الفضائل وهى مبرمجة،

وأنها قد تكون موجودة على مستويات مرتفعة داخل مخلوق وهو لا يملك القدرة على الاختيار، ولا الذكاء، ولا بعض المعرفة بالمعاناة والألم.

الفضيلة هى أكثر من كونها فعلاً، فهى تتضمن النية، والفهم والحس المرتبط بهما. يمكن برمجة جهاز الكمبيوتر ليصبح دائم الصواب، لكن لا يمكننا وصفه بأنه صادق أو حكيم. يقدم المنظار المساعدة للمريض لكننا لا نعتبره رحيمًا. يصور القرآن الملائكة بوصفهم مخلوقات لا تملك إرادة حرة، لكن الرجال والنساء يملكون القدرة على الارتفاع إلى مستوى يفوق الملائكة.

الذى يضفى القيمة على الفعل هو إرادة فعله مع القبول والاعتراف بالحاجة التى يلبيها. إذا ألقيت أنا بقشرة ثمرة موز فى الطريق، وبعدها بساعات كان هناك لص فى طريقه إلى سرقة شخص عجوز، ثم تزحلق هذا اللص فى قشرة الموز هذه مما منعه من ارتكاب جريمته، فلا يمثل فعلى بإلقاء قشرة الموز فى الطريق فعلاً من أفعال العدل أو الرحمة من جانبى. إن دورى فى منع هذه الجريمة هو دور غير مقصود على الإطلاق، إنه فعل تنقصه الإرادة وينقصه الفهم والإدراك. إذا أرسلت عبر البريد مبلغًا من المال إلى رجل معروف بالثراء الشديد دون أن أذكر اسمى أو عنوانى، فمن الصعوبة بمكان اعتبار ذلك فعلاً من أفعال الإحسان؛ ذلك لأنه فعل موجه تجاه شخص ليس فى حاجة إلى العون المالى. لا يعنى ذلك القول بأن الإرادة والذكاء ومعرفة العواقب هى فقط عناصر ومكونات الفعل القيمى- إن الأمر أكثر تعقيدًا وعمقًا من ذلك- لكن يتوجب تقديم هذه العناصر الثلاثة إلى درجة متقدمة بعض الشىء، حتى يكون فى مقدورنا إدراك الفضيلة.

كان مدرب كرة القدم الأمريكية فى مدرستى الثانوية يعلق لافتة فى غرفة الملابس مكتوب عليها «لاعائد بدون ألم» ما يعنى أنه من أجل ارتفاع المستوى البدنى الرياضى ينبغى علينا أن نكون على استعداد لتحمل المعاناة والألم. واعتاد أساتذتى على القول بأن التعلم يستلزم العمل والجهد الشاقين وكذلك الصبر. وقد قال لى أحد أساتذة الرياضة ذات يوم إن المسائل الرياضية العويصة والصعبة هى تلك التى نتعلم منها الكثير. لم يخطر فى بالى على الإطلاق أن أتشكك فى هذه

البديهيات، حيث بدت لى منطقية وطبيعية. يشير القرآن إلى أن القانون الطبيعى نفسه ينطبق على ترقينا الروحى. البشر هم مخلوقات ذات ذكاء فائق ينمو من خلال التعلم، لكن التعليم يتطلب أيضًا الوضع فى موقف الاختبار. وهى نقطة يعيد القرآن تكرارها. يتضمن الترقى والنمو الروحى والأخلاقي التحكم والسيطرة على الإرادة الذاتية، وإعمال التطور الحادث فى عقل المرء واستخدامه، إضافة إلى معايشة واكتساب خبرة المحنة والابتلاء.

تستلزم ممارسة الاختيار الأخلاقى أيضًا معرفة وإدراك الخطأ والصواب فى البدائل المطروحة أمامنا، والتى تقدم تفسيرًا لتعرضنا إلى الإلهام الملائكى أو الوسوسة الشيطانية. يعرض الإلهام وتعرض الوسوسة لنا معًا من أجل إبراز وإعلاء الأخلاقية فى العديد من قراراتنا، ويوفر الاثنان لنا (الإلهام والوسوسة) المحرضات والعوامل المساعدة على ترقينا الروحى. يلعب الوحى دورًا مكملاً، حيث إنه يقدم أوصاف سلوك الخير والشر، ويلقى الضوء على السبيل إلى النمو والترقى الروحى.

لقد بدأت فى رؤية كيف أن جميع العناصر التى قدمها القرآن فى قصة آدم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٩] كانت على توافق مع ما كان عليه قوله فى ما يخص الهدف من الحياة. بدأت حججى فى الجدال ضد وجود الله فى النفاد بشكل متسارع. لم يكن ذلك فى ذاته مبرهنًا على أى شىء. لكننى قد اعتدت على الظن بأن لدى أسبابًا وجيهة لعدم الإيمان.

الممارسة.. الممارسة.. الممارسة

لقد تربّيت فى بيئة إجرامية إلى حد ما. كل طفل عرفته على التقريب كان منغمسًا فى شىء من الخروج عن القانون. لم أنخرط فى إدمان المخدرات، أو فى إدمان شرب الكحوليات بسبب أننى رأيت الإدمان يدمر والدى، وإخوتى الأربعة، وعماى الاثنين، والكثير من أصدقائى. لم أشترك فى عنف جنسى على الإطلاق ولا حتى اغتصاب لا يعاقب عليه القانون على الرغم من أن الفرص كانت سانحة،

وتجنبت قدر المستطاع الدخول فى المعارك بين العصابات وأنواع العنف المنتشر فى الجوار، حيث إننى لم أكن أخطط للعيش لبقية عمرى فى بلدتنا «بريدج پورت- كونيكتيكت» أو فى إصلاحية الولاية. وقد عشت حياة مستقيمة على وجه الإجمال، لكننى لم أكن محصنًا ضد الخطيئة.

ارتكبت أول سرقة لى عندما كنت في الحادية عشرة من عمرى. سرقت كيسين زنة كل واحد منهما ثمانية أرطال من العلكة يبلغ ثمن الكيس الواحد منها خمسين سنتًا، من سوپر ماركت يقع فى طريقى إلى المنزل عائدًا من مدرسة سانت أندروز، كنت فى غاية القلق لدرجة استلزمتنى خمس عشرة دقيقة لإنهاء عملية السرقة هذه. فكرت فى حمل الكيسين والتوجه ناحية المخرج، ثم فكرت بأنه ربما كان أحد يراقبنى فأعدتهم مرة ثانية فى قسم الحلويات. بعد تكرار ذلك لمرتين قررت إخفاء الكيسين على الأرض لما يقرب من باب الدخول الأوتوماتيكى إلى داخل المحل قليلاً. خططت أن أغادر السوبر ماركت خاوى اليدين، ثم أعود إلى المحل واضعًا إحدى قدمى على ممسحة أرض المدخل الأوتوماتيكى المطاطية؛ لكى ينفتح الباب الأوتوماتيكى، ثم أسحب الكيسين المخبأين وأنسل عائدًا من باب الدخول قبل أن ينغلق من ورائى. شعرت أن ذلك أكثر أمانًا عن محاولة الخروج من باب المخرج والأكياس مخبأة تحت قميصى؛ ذلك لأننى تصورت أن مفتشى المحل يراقبون على الأرجح أبواب المخارج وليس التى للخروج. علاوة على ذلك فلو أننى لم أجد الكيسين عند عودتى، حيث تركتهم فذلك يعنى أننى كنت تحت المراقبة.

سارت خطتى- التى تبدو لى سخيفة عندما أنظر الآن إلى الوراء- بدون أية هفوات، ثم تقابلت مع أصدقائى فى ساحة انتظار السيارات فى الخارج. كان قلبى يدق بسرعة دقّا عنيفًا وأنا أصف مغامرتى لهم. شعرت بالارتياح البالغ؛ لأنه لم يقبض علىّ بوصفى بطلاً عظيمًا، وكما لو كنت قد أحرزت هدف الفوز فى لعبة كرة القدم. لكن زهوى أصابه التبخر فى اللحظة التى وطأت فيها قدماى المنزل، غمرتنى نظرة واحدة رمقتنى بها أمى بشعور من الذنب. كانت نموذجًا للأمانة فحسب، وكانت تملؤها الثقة البالغة تجاهى. كنت أعلم ما سيحدث لها من أذى عميق لو أنها علمت بما قد فعلته للتو.

وجدت صعوبة فى النوم فى تلك الليلة. وشعرت بعدم ارتياح شديد، لم أستطع التوقف عن التفكير فى ما اقترفته. كما لم أستطع التوقف عن التفكير فى الله. شعرت كما لو كان الله قد أحاط بى، واحتوانى، وأخذ ينظر إلىّ، بدون غضب لكنها نظرة مراقبة بغير اختلاف، وشعرت بندم وخجل هائلين. تمنيت أن يكون فى مقدورى التخلص من ذلك اليوم وإبعاده فى مجمله بعيدًا عنى. فكرت فى شراء كيسين إضافيين من نفس السوبر ماركت ثم إعادة وضعهما على الرف، لكننى لم أفعل ذلك إطلاقًا.

داومت على السرقات الصغيرة فى العشرة أعوام التالية. وأعتقد أننى لم أسرق شيئًا تزيد قيمته عن عشرة دولارات، ولم يتجاوز عدد سرقاتى المرات الست فى العام، ومع الوقت تزايدت مهارتى فى فعل ذلك ولم يحدث على الإطلاق أن قبض علىّ. عندما بلغت الحادية والعشرين من العمر دعوت صديقة لى للعشاء فى الخارج لتناول البيتزا فى مطعم إيطالى قريب من حرم الجامعة. وعندما فرغنا من طعامنا، وضعت شيك الحساب خلسة فى جيب بنطلونى. واتجهت ناحية مكتب دفع النقود. طلبت من محصل النقود أن يعطينى كيسًا من العلكة. ودفعت ثمنه دولارًا واحدًا، وأعطانى محصل النقود بعض قطع النقود المعدنية كفرق للحساب ثم خرجت ومعى صديقتى الشابة من المطعم بدون دفع ثمن عشائنا.

أثار هدوئى فى حرمان المطعم من ثمن البيتزا التى أكلناها إعجاب صديقتى الشابة. وكان أكثر ما أثار إعجابها هو التهور والطيش الذى أظهرته بذهابى إلى محصل النقود من أجل كيس من العلكة بدلاً من مغادرة المطعم على عجل، وشرحت لها أن السقاة والساقيات فى المدن الجامعية يراقبون بشدة الطلبة المتهربين، لكن عندما يرونك تتبادلين النقود مع محصل النقود فإنهم يفترضون أنك تدفعين شيك الحساب. سألتنى عما إذا كان الذنب قد سبب لى انزعاجًا فى يوم من الأيام، فأخبرتها أنه ذلك كان يحدث فى الماضى وليس الآن؛ لأنه مع الممارسة يزداد الأمر سهولة.

حدث ذلك فى وقت قريب من وقت المرة الأخيرة التى سرقت فيها شيئًا، ورغم ذلك فكلما نظرت إلى الوراء لا أعرف ما الذى جعلنى أتوقف. قد يعود السبب فى

ذلك إلى أن وضعى المالى قد تحسن قليلاً. أو قد يرجع الأمر فى ذلك إلى كونى قد ابتعدت عن «بريدج بورت» لما يزيد عن أعوام أربعة.

أو ربما وصلت إلى الإحساس بأن الأمر لم يعد يوازى قيمة المخاطرة باحتمال القبض علىّ. كل ما أعلمه أنه بدأ يسبب لى الضيق مرة أخرى.

إذا كان الهدف من الحياة هو النمو والترقى فى الفضائل التى ينتهى مصدرها وتجد كمالها فى الله، بحيث قد يتاح لنا معايشة وتذوق صفاته والتمتع بالحميمية الإلهية [الوصل الإلهى] إلى درجات لا نهاية لتعاظمها، وإذا كانت أفعال الخير تحفز من هذا الترقى وتنميه، وأفعال الشر تعوقه وتحبطه، إذن فإن الذى يحصل على الفوائد أو يتحمل الخسائر من فعل الخير أو الشر هو فاعل أيهما. لذلك ينص القرآن على:

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢].

﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١][1]

إن الضرر الذى يحس به فاعل الشر بوصفه نتيجة للإصرار على المعاصى هو ضرر جوهرى. تعوق أفعال الشر الرقى فى الفضيلة وتؤدى إلى التآكل الروحانى؛ لذلك فإن المصرين على مجافاة الخير يتوجهون بالعدوان ضد كينونتهم، كما يعانون من الذبول الروحى. وبدلاً من الحصول على ما يحتاجون إليه من أجل معرفة الصفاء والسلام فى الحياة التالية، فإنهم يكتسبون النقيض التام، إنهم ينمون من الصفات التى تتناقض مع معايشة ومعرفة الجمال الذى كان ينتظرهم فى المقابل فى الحياة الآخرة. يتخلل الشر الذى تعودوه داخل كيانهم - يصبح الشر هو ذاتهم- وهذا هو الخسران المبين، حيث إن الذات وحدها هى التى تنتقل إلى الوجود التالى.

---

(١) قارن [يونس: ١٠٨]، [الإسراء: ١٥].

يصور القرآن هذه الرابطة بين أعمال المرء وبين وضعه فى الآخرة تصويراً رمزيّا قهريّا: سوف تكون أعمال الشخص الشريرة مربوطة إلى عنقه أو عنقها (﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣]، ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ [سبأ: ٣٣]، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ [يس: ٨])، سوف تشهد ألسنتنا وأيدينا وأقدامنا وجلودنا على ما قدمنا فى حياتنا (﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤]، ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٠]) سوف نأكل من ثمار أعمالنا ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٣٩-٦٨]. إن الأعمى روحيّا فى حياتنا هذه سوف يحشر أعمى فى الحياة القادمة ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]: أما الذين عاشوا بنور الله فى هذه الحياة فسوف يملكون نورهم يسعى بين أيديهم فى يوم القيامة (﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالدينَ فيهَا ذَلكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظيمُ﴾ [الحديد: ١٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّه تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتكُمْ وَيُدْخلَكُمْ جَنَّات تَجْري من تَحْتهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزي اللَّهُ النَّبيَّ وَالَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْديهمْ وَبأَيْمَانهمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْممْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾ [التحريم: ٨]). سوف يتضح تأثير كل فعل أخلاقى، كبر هذا الفعل أم صغر ﴿فَمَن يَعْمَلْ مثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]. تنجلى عن هذه الأوصاف أننا عندما ندخل إلى الآخرة فإن ذواتنا سوف تشخص الحالة الروحية التى ارتفعنا إليها مع نهاية حياتنا الأرضية، كذلك وبما يتطابق مع الحالة البدنية لطفل حديث الولادة فى لحظة وصوله إلى هذا العالم والتى تفصح عن نموه البدنى داخل الرحم، تكون ذات الشخص عندما يدخل إلى الآخرة مفصحة عن الخير أو الشر الذى حصله واكتسبه فى حياتنا هذه. دخول الشخص الشرير بالفعل إلى العالم الآخر يشابه ولادة مخلوق يدخل عالمنا هذا وهو مشوه ومحروم مما يحتاجه للراحة الجسدية. لذلك فمن غير المثير للدهشة أن تتساوى الخطيئة مع تدمير الذات.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، [الأعراف: ١٦٠].

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّه فَأُوْلَئكَ هُمُ الظَّالمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّه فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ [الطلاق: ١].

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ ليَظْلمَهُمْ وَلَكن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

﴿ قُلْ يَا عبَاديَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسهمْ لا تَقْنَطُوا من رَّحْمَة اللَّه إِنَّ اللَّهَ يَغْفرُ الذُّنُوبَ جَميعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

لا يصر القرآن على وجوب الوصول إلى الكمال من أجل الحصول على السعادة فى الآخرة. إنه يقدم حياتنا على الأرض بوصفها طورًا من أطوار ترقينا، وأن المؤكد فى هذا الطور أننا سوف نرتكب أخطاء، ويجب أن نأمل ونرجو أن نتعلم من

أخطائنا هذه. إن الميزان هو الرمز الأخروى البارز الذى يربط رقينا الأخلاقى والروحانى مع وضعنا فى الحياة الآخرة، وهم الذى يزن الخير الذى كسبه المرء. فى يوم القيامة سيكون الفرح والهناء من نصيب الذين ثقلت موازينهم- وهم أهل الخير بشكل رئيسى- أما الذين خفت موازينهم-وهم أهل الشر خاصة- فسوف يعانون عذابًا عظيمًا جزاء تدميرهم لذواتهم [1].

يلعب حق المحاولة والخطأ دورًا هامًا فى رقينا ونمونا، حيث نتعلم وننمو من خلال اختياراتنا على المستويين العقلى والروحى. عندما نصنع خطأ تترتب عليه تبعات أخلاقية نكون قد ارتكبنا خطيئة يتزايد ثقلها وأذاها إذا كنا على علم بمدى عدم صوابها ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧-١٨]. لذلك فإننا إذا أدركنا أخطاءنا، ثم تبنا وفعلنا الصواب بعدها فإن الدروس التى تعلمناها يمكن لها أن تكون عظيمة الفائدة، وبهذا الأسلوب فإن الخطأ الذى اقترفناه ذات مرة يمكن له أن يتحول إلى صالحنا ويساهم فى رقينا داخل الفضائل.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

يختلف أمر ألا نقترف أية أخطاء بسبب تحذيرنا بعدم فعل ذلك، اختلافًا تامًا عن أن يعود ذلك إلى أننا قد عايشنا وذقنا بصفة شخصية ضرر الخطأ. فى الحالة الثانية فإن الحكمة الكامنة خلف الحظر تصبح مطبوعة على صفحة القلب وصفحة العقل، ثم نبتعد عن الشر ابتعادًا كبيرًا لا بسبب أنه محظور ولكن بسبب النكوص الذاتى الغريزى المتعلق باحتمال عودة الاضطراب الداخلى السابق معرفته.

كذلك فبمثل ما إن حق المحاولة والخطأ هو جوهرى للغاية لتطورنا الفكرى، فإنه جوهريٌ للغاية لتطورنا الروحى. بدون احتمال حدوث الخطأ، سوف يتجمد

(١) [الأعراف: ٨-٩]، [القارعة: ٦-١٠].

ويركد إدراكنا الروحى، كذلك محاولة إصلاحه؛ لذلك فإن أهمية التوبة التى يداوم القرآن علينا لإتيانها لا تحتاج إلى مزيد تأكيد. تجمع التوبة ما بين حدوث الذنب وبين الرغبة فى التغير، لكن التحول الذاتى قد يكون من الصعوبة بمكان. يبين القرآن أن الله لا يترك العبد التائب فى الصراع بمفرده، لكنه يقترب منه أو منها بالمغفرة. يتضمن هذا الأمر ما يفوق الغفران، حيث يستجيب الله لتوبتنا ويسارع إلى تقديم العون لنا بإحاطتنا بحبه ورحمته ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

إنه يهدى التائب إلى التعافى والشفاء الروحى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨] ويكرر القرآن النص على أن الله «يتوب على» الخاطئ الذى انسحق فؤاده بالندم بالرحمة والمغفرة والكرم، مذكرًا إيانا بما يلتفت به أحد الوالدين ناحية طفله أو طفلها المصاب. وحيثما يذكر الاسم الإلهى «التواب» داخل القرآن فدائمًا ما يرتبط ذلك بمغفرة الله التى تزيد من قوة الانطباع بأنه مغفرة الله هى استجابة رحمته لهؤلاء الذين أخطأوا فى حق أنفسهم وينشدون العافية[١].

جميع المعاصى التى نرتكبها ليست ذات ثقل متساو، يتسبب لنا عن بعضها من الأذى الذى يفوق ما للمعاصى الأخرى. علاوة على ذلك، فى مقدور أفعال الخير أن تزيح التأثيرات الضارة لتلك الشريرة، كما يرجح الثواب الإيجابى الناشئ عن الخير التبعات السلبية لعمل الشر رجحانًا.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٦-٣٧].

---

(١) [البقرة: ٣٧ - ٥٤-١٦٠]، [النساء: ١٦-٦٤]، [التوبة: ١٠٤ -١١٨]، [النور: ١٠]، [الحجرات: ١٢]، [النصر: ٣].

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم : ٣٢].

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود : ١١٤].

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص : ٨٤].

تعيد هذه الآيات التأكيد على أن البراءة من كل عيب ليست مطلوبة من أجل دخول الجنة فى الآخرة، وعلى أن كل ابن آدم خطاء؛ لذلك تنص الآية ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم : ٣٢] على وجوب ألا يدعى أى امرئ أنه حاز الطهارة والتزكية. بدلاً من ذلك يأمرنا القرآن أن نناضل لكل اجتهاد من أجل الترقى فى الخير؛ لأن رحمة الله وعنايته هى التى سوف تزكينا فى النهاية، مع ذلك فهناك الذين لا يفلحون فى عتق أنفسهم من الكبائر التى اقترفوها، وهم يحبون الله على الرغم من ذلك ويثير الندم عذابهم. هؤلاء يخبرهم القرآن أنه على الرغم من هذه الكبائر فقد لا يقودهم ذلك على الدوام إلى العذاب فى الآخرة:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣].

لكن هناك معصية وحيدة هى التى تقود إلى الهلاك لا محالة، وهى الرفض الإرادى الاختيارى لترك عبادة الآلهة الزائفة؛ ذلك لأننا حين يقودنا عصياننا إلى وضع ثرواتنا، ونفوذنا، وشهواتنا، وكبريائنا، والناس، وإنجازاتنا وإبداعاتنا، فوق الله، فإننا نصبح فى تناقض كامل ومباشر مع الهدف من وجودنا.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

إحدى أكثر المخاطر التى يقوم بها صاحب المعصية الذى لا يتوب هى أنه يجلب التدمير إلى مركزه أو مركزها الأخلاقى والروحى، أو هو ما يشير إليه القرآن بوصفه «القلب»، ينص القرآن على أن ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ﴾، إنما ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦][1].

يؤكد القرآن على أن قلوب هؤلاء الأشخاص تصبح سوداء ومحجوبة وصدئة وقاسية، وبالتالى لا تقدر الهداية على اختراقها، فى حين تصبح قلوب الأتقياء لينة وحساسة ومنفتحة على التلقى لنور هداية الله -جل وعلا-[2] كلما زاد إصرارنا على فعل الشر كلما أصبحا أقل حساسية تجاه الشر النابع منه. وعلى الرغم من أن القرآن ينسب فى الأغلب ذلك الحجاب الذى تتسبب عنه قساوة وتمرد القلب إلى الله، فلا ينبغى لنا التوصل إلى الخلاصة التى مفادها أن ليس للعاصى يد فى ذلك. ذلك أن القرآن عادة ما ينسب إلى الله كل ما يحدث وفقًا للقوانين الطبيعية المتعلقة بالسبب والنتيجة والتى قد وضع الله خلقه تحت تأثيرها. وبذلك يصبح الله هو فالق الحب والنوى، وهو فالق الإصباح، ومجرى السحاب، وينزل المطر، وينصب الجبال على الأرض، وممسك الطير فى الهواء، ويعلِّم بالقلم، وينشئ الجنين داخل الرحم[3]، بينما هذه الظواهر تتبع فى الوقت نفسه قوانين ثابتة يشير إليها القرآن بـ«الأقدار»[4] المحكومة إلهيًا. يمكن قول الشىء نفسه على حجاب قلوب غير المؤمنين حيث يبين القرآن بثبات أن ذلك يحدث بسبب إنكارهم العنيد للحق. إنه هو الشر الذى يكتسبه البشر والذى يغطى قلوبهم مثل الصدأ ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. إنه بسبب أن الجاحدين يتبعون

(١) انظر أيضًا [النساء: ١١٦].

(٢) [البقرة: ٧٤]، [المطففين: ١٤].

(٣) [الحجر: ٢٢]، [النحل: ١٠-١٥]، [المؤمنون: ٦٣].

(٤) [الرعد: ٨]، [الحجر: ٢١]، [الفرقان: ٢]، [يس: ٣٩]، [القمر: ٤٩]، [عبس: ١٩]، [الأعلى: ٣].

شهواتهم؛ لذلك فقد طبع على قلوبهم ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤-١٦]. لا يجبر الله الناس على إنكار آياته، لكن قلوبهم فحسب هى التى تقسو نتيجة للشر المتأصل فيهم ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢]. ومثلما اعتادت والدتى على القول: «إذا واصلت الكذب لوقت طويل، فحتى أنت نفسك سوف تبدأ فى تصديقها». ذلك هو أحد وجهى العملة الذى رأيناه، أنه كلما ازداد ترقينا داخل الخير، كلما تعاظمت مقدرتنا على التلقى عن الصفات الإلهية وعن الحق على وجه الخصوص.

لايمكن إنكار ذلك

كرهت طوال حياتى عدم اتخاذ القرارات. لا يعنينى هذا الأمر كثيراً فيما يتعلق بالآخرين، لكننى لا أطيق ذلك من جانبى. مع ذلك فلأسابيع عدة بدت لو كانت سنين عدة لم أفعل شيئًا بخصوص خبرتى ومعايشتى للقرآن. لا يعود الأمر فى ذلك إلى أننى لم أفكر فى ذلك أثناء مواجهتى مع القرآن- على العكس، كان ذلك فى عقلى على الدوام- لكن لم أملك القدرة على الاختيار، لم تتح لى بدائل عملية. ماذا علىّ أن أفعل وإلى أين أتوجه الآن؟ لقد سلمت بأن القرآن وهبنى الهداية - على الرغم من كونى ملحدًا- التى شكلت بالنسبة لى على الأقل فكراً عقائديًا متسقًا على المستوى المنطقى، كما كنت على استعداد للاعتراف بأن الوحى قد أحدث تأثيره فى نفسى بأساليب لم أكن أتوقعها على الإطلاق وبدا أنها قد أيقظت روحانيتى من سباتها وأمسكت بتلابيبها، وهى الروحانية التى أنكرت أنا حيازتى لها- كان من الصحيح أيضًا أنه لم يكن مفهومًا لدى أن نصًا يملك مثل هذه القوة، والجمال، والعبقرية، يمكن له أن يسطع من قلب أراض جرداء وبدائية

ومتخلفة من داخل العالم القديم. لكن لم يبرهن أيٌّ من ذلك لى على أن هناك إلهًا على وجه التحقيق، وأنه هو الذى أوحى بهذا القرآن.

لم يكن هناك وجود لأحد أو لأى شىء فى مقدوره السير بى إلى الخطوة التالية. لقد أخذتنى نهاية القرآن بشكل فجائى كان من الممكن أن يساعدنى إذا كان قد قدم لى وصفًا عن كيفية التحرك بصفتى منفتحًا على القبول باحتمال وجود الله إلى مرحلة الاقتناع الراسخ بذلك. لكننى بدلاً من ذلك قد تركت مع مجادلات عرجاء ضد وجود الله بلا حصول على براهين لصالح وجوده. وبدلاً من الانتهاء بانجذاب عقلى، تركنى القرآن بعظات ثلاث نهائية:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ١-٥].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ١-٦].

تساءلت: هل الأمر بهذا اليسر؟ هل هو مجرد القول بها؟ هل هو مجرد التسليم بالموافقة؟ مجرد الاستغاثة؟ وماذا بعد ذلك؟ هل سيفتح الله قلبى ثم أرى؟ هل يقول القرآن بأن خوفى من الآخرين هو الذى يمنعنى من الوصول إلى الخطوة التالية؟ هل هو يقول بأن أفعال القوى النفسية الشريرة هى التى تعيقنى عن الاقتناع؟

وحتى إذا كان الله موجودًا، فما الذى علىّ فعله؟ كنت أقف وحيدًا داخل ذلك كله. لم أكن على معرفة بأي شخص قد مر بمثل هذه التجربة التى أخوضها. والمسلمون القلائل الذين اتصلت بهم كانت مقاربتهم للقرآن من إطار عقلى مختلف. وبدا لى أن أسلوب قراءتهم للقرآن ولفهمه وللتصرف وفقًا له محكوم كليًا بشكل مسبق بثقافاتهم، كما لو أن الاستجابة لكل آية قد صيغت وحصل التوافق عليها من قبل من زمن طويل، ثم درست وحفظت عن ظهر غيب من

وقتها. بدا منهم عدم الارتياح تجاه الاستجابات غير المتعارف عليها وغير المؤهلة وذات التلقائية تجاه قرآنهم. وبدا أنهم يقبلون فقط بالقراءات ذات المرجعيات القديمة على الرغم من الحقيقة الساطعة بأن القرآن يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧][1].

وبالطبع لا وجود لأحد- قد أتى من نفس المرجعية التى أتيت أنا منها - يقدر على استيعاب ما كنت أمر به. لم يكن لدى معرفة وصلة بأمريكى واحد قد قرأ القرآن. لم يمثل الأمر جزءًا من حركة يواجهها مجتمعى، مثلما كان حال النبى فى الجزيرة العربية. لم يتوافر لى الاختيار بين جهات متصارعة. لقد وقع هذا الأمر أمامى بمحض المصادفة، مثل العثور على زجاجة بداخلها خطاب ألقتها المياه على شاطئ منعزل. لا يمكن أن أكون أنا المقصود بذلك. ماذا إذا أصبحت أنا مقتنعًا بوجود الله. فهل من المفروض علىّ بعدها أن أصبح مسلمًا وأن أتشبه بثقافة ورؤية للعالم غريبتين عنى؟

لقد أفلت الأمر برمته من يدى. لقد سبحت بعيدًا جدًا عن الشاطئ، وبغض النظر عن مدى ما أبذل من جهد جهيد. كان التيار يسحبنى مبتعدًا عن الشاطئ. الأمر كله حدث برقة لا ترى. لقد بدأت دراستى للقرآن بوصفها بحثًا عقليًا بسيطًا تحول بالتدريج ليأخذ منحًى روحيًا. اكتشفت خلال قراءتى للقرآن أن جدالى الفلسفى الموجه ضد وجود الله- والذى كنت أعتبره غير قابل للنقض- كان أضعف كثيرًا مما كنت أعتقد. وجدت أنه كان يتأسس على مجموعة من القواعد التى لم يقبل بها القرآن. ومن ناحية أخرى منحنى القرآن تفسيرًا للوجود الإنسانى- يتأسس على افتراضات لم أضعها على الإطلاق فى اعتبارى، ورغم ذلك بدت لى طبيعية- كما وجدتها من الترابط فى غاية القوة. مع تبخر واختفاء اعتراضاتى على وجود الله، بدأت تخامرنى الشكوك- بشكل معتدل فى البداية- حول مبدأ الإلحاد. ويغلب علىّ الاعتقاد أننى بدأت عند هذه اللحظة فى معايشة وتلقى لحظات

(١) وبالمثل تنص الآية [١٠٩] من سورة الكهف على: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.

روحانية كانت مبهمة فى البدايات الأولى ثم ازدادت شدتها فيما بعد عندما أصبحت أكثر انفتاحًا على احتمالية وجود الله. لقد شعرت أن التغير قد ابتدأ بوصفه تغيراً عقلانيًا- تغيراً فى التفكير- ومنه بدأت فى اكتساب يقظة روحانية.

هل وجود الله حقيقة ممكنة؟ يشير القرآن إلى أننا نمتلك معرفة فطرية مطبوعة بالله- تكاد تكون إحساس غريزى بذاته جل وعلا - وقد تصبح هذه المعرفة الفطرية غائمة ومعتمة من خلال قصر عقولنا فى اتجاه وحيد هو اللهث وراء الأغراض الدنيوية، أو من خلال المداومة على المعاصى أو العناد. ويرفع القرآن دعوى بأن العديد من غير المؤمنين يظهرون هذه المعرفة الأولية بوجود الله فى لحظات الخطر، عندما يشعرون بأن الموت قريب، وأنهم يتوجهون ناحية الله بتلقائية شديدة وبكل إخلاص بالأزمات أو بالخطر، أو كما لو كان الدعاء يمثل ميلاً غريزيًا بالنسبة لهم. رغم ذلك يشير القرآن أيضًا إلى أنه بعدما تمر الكربة وتبتعد بعيداً فإن هذا الصنف من الناس ينقلب على عقبيه بشكل نموذجى عائداً إلى إنكار الله. وينص القرآن على أن الهدف من هذه الحوادث هو إظهار «الآيات» وعلى أن الله يتعرض بها لغير المؤمنين من خلقه ﴿لعلهم يتذكرون﴾[1].

تذكرت يومًا كنت أسير فيه مبتعداً عن منزلى بعدة أميال، وكنت وقتها خريجًا حديثًا فى مدينة «بوردى»، عندما هبت فجأة عاصفة رعدية. لم يكن هناك أى ملجأ أحتمى به انتظاراً لانتهاء العاصفة. وأصبحت الرياح والأمطار والبرق فى غاية العنف إلى الحد الذى ملأنى بالذعر والفزع، وبدأت فى العدو قافلاً فى الطريق. وتعود إلى ذاكرتى أننى وصلت إلى حد أننى تضرعت إلى الله: «إذا كنت بالفعل موجوداً وحاضراً فلا تدعنى للموت هنا». هدأت العاصفة بعدما يقرب من خمس عشرة دقيقة، وعدت إلى سيرى قاطعًا بقية الطريق. نسيت بعدها كل شىء عن حافزى الدينى هذا، لقد طردته بعيداً عنى بوصفه ذعراً غير منطقى، وكررت الفعلة نفسها فى مناسبة أخرى واحدة على الأقل. كنت فى غاية الالتزام بإلحادى إلى الدرجة التى لم أسمح بها على الإطلاق لنفسى بالتفكر مليًا بشكل جدى فيما الذى

(١) [العنكبوت: ٦٥]، [الروم: ٣٣]، [لقمان: ٣٢].

جعلنى أدير وجهى تجاه الله بشكل طبيعى وتلقائى للغاية، حتى على الرغم من يقينى بعدم وجوده - جل وعلا.

استعصت اللحظات الروحية التى كانت تنتابنى أثناء قراءة القرآن على التفسير، ولم يسبق لى على الإطلاق معرفة شىء مثل هذا، ولم أشعر على الإطلاق بهذا الحضور الملموس لما لا أقدر على وصفه إلا بكونه رحمة طاغية فحسب. إننى لم أكن أنشد أو أريد أو أستجدى هذه اللحظات. وعلى النقيض، فقد قاومت لبعض الوقت هذه اللحظات ودفعتها بعيدًا عنى. ما أثار صدمتى إلى حد كبير هو أننى لم أتوقع أو أرغب فى حدوثها، لكنها حدثت وحسب.

وربما كان الفراغ الذى أشعر به هو أكثر ما تسبب فى ضيقى. ما هذا الشىء الذى أثار بداخلى مشاعر العزلة الملازمة هذه، على الرغم من ثراء حياتى الاجتماعية؟.

سألت نفسى: ماذا أريد أكثر من ذلك؟ ماذا أريد أكثر من ذلك من الآيات الدالة أو المجادلات أو آيات القرآن التى دخلت قلبى وأنارت بصيرتى؟ كم عدد المرات الإضافية التى احتاجها من أجل النظر فى مرآة ذاتى قبل أن أعرف نفسى؟ ألست أنا هو السائر المتعطش والتائه والضال داخل صحراء اللهاث، والصراع الدنيوى سعيًا وراء سراب من بعده سراب؟[1].

لماذا أستمر على إنكارى لذلك؟ لماذا لا أستطيع قبول الذى حدث لى أثناء قراءتى للقرآن؟ لماذا لا أستطيع القبول بأننى كنت أفتقد معايشة القرآن، وأفتقد الصوت الذى يتحدث إلى شخصيًا، وأننى أشتاق بشدة إلى الهيبة والإثارة والنضال والراحة والألم والكرب، وأننى أحن إلى الحوار الدائر الذى قام بداخلى؟ لماذا لا أستطيع إعلان اعترافى بأننى افتقدت الحميمية والحب اللذين شعرت بهما بعض الأحيان ثم رفضتهما على رغم ذلك؟ ما الفكرة وراء المزيد من الإنكار؟ لماذا لا أقدر على الاعتراف بأن كل ما كنت أتألم بشأنه، وكل ما كنت أفتقده وكل ما كان يلاحقنى لم يكن إلا الله؟

---

(١) انظر [النور: ٣٩ - ٤٠].

وفكرت هل هناك سبب يمنع حدوث ذلك لى؟ ذلك لا يحدث لأحد كان رافضًا للتدين، منكرًا للروحانية، هازئًا من الإيمان.

إذن لماذا التبرم؟ لماذا لا أترك الأمور فى مسارها التى هى فيه؟

وفى الثامن من نوفمبر عام ١٩٨٢م فى حوالى الثالثة من بعد الظهر، ذهبت إلى المسجد الذى يقع فى الدور تحت الأرضى من كنيسة القديس اجناسيوس فى جامعة سان فرانسيسكو، وقلت لنفسى إننى ذاهب لمجرد إلقاء بعض الأسئلة؛ لأن التحول إلى الإسلام ما زال مستحيلاً. بعدها بما يقارب النصف ساعة، كنت مغادرًا للمسجد بعد أن أصبحت مسلمًا[1].

(١) تكلمت عما حدث فى المسجد فى ذلك اليوم فى كتابى «النضال من أجل الاستسلام» دار نشر أمانة بلتسفيل، MD، ١٩٩٤م، ص٩-١٧.